الفصل الأول

الغرب لم يعتنق المسيحية

obeikandl.com

قام اليهود أنفسهم بتعريف الرومان واليونان على المسيحية. وترجمت العقيدة المسيحية إلى اللاتينية وفق أسس وتعاليم التوراة اليهودية وعقائدها، أي أن الغرب كان قد وقع منذ اللحظة الأولى في شباك اليهود وأحابيلهم.

بحث المؤرخ الروسي ليف غوميليوف في أغوار التاريخ حول الإمبراطورية الرذومانية وننقل عن كتابه (في دوامة التاريخ):

" منذ العام 198 ق.م سار الإكليروس اليهودي وفق مشيئة القيصر وسمح بتحطيم أورشليم وإلغاء السبت وعبد اليهود زيوس الأولامبي." – " ثم تسرب المذهب الغنوصي إلى اليهودية،"

وفي عهد بطليموس الذي حكم مصر بلغت نسبة اليونان 50 ٪ من مجموع سكان الإسكندرية. وفي تلك الفترة تعرّف الرومان بلغتهم على النص التوراتي: فقد رأى بطليموس بأن فلاسفته لا يقدرون على التفوق بالنقاش مع حاخامات مصر، وجاء الفلاسفة إلى بطليموس وقالوا له: "لا نستطيع أن نتجادل معهم أبداً لأننا لا نعرف ما الذي يبرهنون عليه. يجب علينا أن نعرف ما الذي مكتوب هناك، وعندئذ نستطيع مجادلتهم."

اعتقل بطليموس 72 حاخاماً وألقى خطبة فيهم وقال: "سيأخذ كل واحد منكم الآن نسخة من الكتاب المقدس ومن ورق الرق وأدوات الكتابة، وستقيمون في حجرات انفرادية، ترجموا إلى اللغة اللاتينية هذه النصوص، وسيقوم محققون لغويون بمطابقة النصوص، وإن وجدنا فيها اختلافاً فسوف أشنقكم جميعاً. وسأجمع آخرين جدد وسأحصل على الترجمة. وبتلك الطريقة حصل بطليموس الروماني على أول ترجمة لاتينية لنصوص التوراة تلك.

وعندما قرأها الإغريق ضربوا أيديهم على رؤوسهم: انظروا كيف خلق الله العالم.!. لقد أراد يلدافاوس أن يقضي على المسيح لكنه لم يتمكن سوى من تدبير مقتل المسيح الإنسان الذي بعث عقب ذلك واتحد مع المسيح الإلهي.!.

كانت تلك المرحلة الأولى في تعرف الغرب على المسيحية، ومن الملاحظ بأن هذا التعرف على المسيحية إنما جاء بواسطة التعرف على اليهودية نفسها. فقد قام اليهود أنفسهم بنقل المسيحية الممزوجة باليهودية آنذاك إلى العقل الغربي الأوروبي.

هذا التمازج المسيحي اليهودي ظل حاضراً في العقل الغربي حتى عصرنا الحاضر. ولأن اليهود وشرائعهم التوراتية كانوا بالنسبة للغرب الرقيب والحكم والمشرّع لعقائد المسيحية الغربية، فإنهم حافظوا طوال العصور على هذه المكانة. وقد ظهرت في الغرب الكثير من محاولات الإصلاح الديني، لكنها كانت تواجه بالحرق والإبادة.

وكانت اليهودية قد تورطت في الغوص بالعقائد الغنوصية، وأخذت عنها الكثير من العقائد والشروح، فنقلت بدورها هذه العقائد الغنوصية إلى الغرب اللاتيني والروماني آنذاك.

"الغنوصيون الإسكندرانيون: باسيليوس وفالينتين، انتقلوا إلى روما في القرن الثاني للميلاد، وهناك عرضوا فكراً غنوصياً دينياً يرى أن الإله هو الجوهر الأسمى، كما انتقلت العقيدة المانوية إلى أوروبا عبر الأنطاكي (ستورنيل) الذي أقام في روما. فامتدت المانوية من الصين وحتى مدينة تولوز الفرنسية."

الغرب ضد البوليصيين

"وفي القرن الثاني تغلب أنصار التوحيد على الثويين." "وجاء مذهب البوليصيين من اسم بولص الرسول، وقد تحالف البوليصيين مع المسلمين ودخلوا في صراع مع الأورثوذوكسية البيزنطية، وعلى الرغم من أنهم لم ينبذوا الإنجيل إلا أنهم وصفوا الصليب بأنه رمز اللعنة، ذلك أن المسيح صلب عليه، ولم يتقبلوا الإيقونات والشعائر ولم يعترفوا بأسرار المعمودية وسر القربان، واعتبروا كل شيء مادي شراً. وهكذا دخلت العقيدة الماركونية إلى سلافيي البلقان وأنجبت بوغوميل فيما بعد ." فاعتنق البلقان عقائد البوليصيين، وظلوا على خلاف مع اليهودية الغربية، وتميزوا عن غيرهم من الأوروبيين في تلك العقيدة. الأمر الذي سهّل دخولهم في الإسلام في عهد العثمانيين إذ لم يجدوا أنفسهم في خلاف ذي شأن كبير مع الإسلام.

– " لقد بحث المسيحيون عن الموت، لأنهم آمنوا بخلود الروح وبالحياة الآخرة حتى أنهم اعتبروا أن الشهادة هي الطريق المباشر إلى الجنة لدرجة أنهم طلبوا الموت لأنفسهم. وقتل المسيحي الروماني فونيفاتي في العام 290 بهذه الطريقة الانتحارية" -

" ولم يسمح المسيحيون بالدعارة بل راعوا أحادية الزوجية، وتعدد الأولاد." " وكان المسيحيون يقتلون أصحاب ضيعهم الوثنيين." فكانت تلك ثورة على الملحدين والوثنيين لكنها جوبهت من قبل الروم واليونان بالتنكيل، ولم يسمح لمذهب التوحيد البوليصي بالتمدد داخل مناطق النفوذ الروماني الواسعة. فظلت المسيحية المتأثرة بالغنوص اليهودي هي السائدة. وطوال القرن الميلادي الثالث كان الغرب مصرّاً على اعتناق المسيحية المزيفة المتأثرة باليهودية الغنوصية.

الغنوصية أزمة الفكر الغربي

رغم قدم الغنوصية فإن تأثيرها مازال قائماً حتى اليوم إلى حدّ كبير فالصوفية الإسلامية هي ذات أصل غنوصي. كما تأثرت العديد من الجماعات اليهودية بالغنوصية عبر التاريخ وتم اعتناق صيغ عقائدها وتهويد هذه العقائد. ومن ناحيتها فقد تأثرت المسيحية بالغنوصية أيضاً وحدث ذلك التأثير بواسطة حاخامات يهود شرقيين، ويمكن الحكم على الغرب المعاصر بأنه غنوصي أكثر من كونه مسيحي.

وصلت الغنوصية إلى الغرب على مراحل عديدة، وفي كل مرحلة كان الغرب يتأثر بجانب من العقائد الغنوصية. فالاعتناق الأول للمسيحية عند الرومان واليونان كان متأثراً بالغنوصية حيث نقلها إليهم بعض حاخامات اليهود، وفي العصور الوسطى عاد اليهود إلى الغنوصية وبثوا من جديد أفكارها في المجتمعات الغربية، فظهرت المانوية والشيطانية والبهائية وغيرها.

والغنوصية من الكلمة اليونانية «غنوصيص»، ومعناها «علم» أو «معرفة» أو «حكمة» أو «عرفان». وفي التراث العربي الإسلامي، تُستخدَم كلمة «عرفان» عند المتصوفين لتدل على نوع أسمى من المعرفة يُلقَى في القلب في صورة «كشف» أو «إلهام». و«العرفان»، حسب تعريف المؤرخين له، هو العلم بأسرار الحقائق الدينية والخصائص الإلهية، وبكل ما هو سري وخفي (كالسحر والتنجيم والكيمياء).

والغنوصية ترى أن ثمة جوهراً واحداً يجمع بين كل الديانات ولذا لا تقدم نفسها كديانة جديدة، بل كباطن للشريعة القائمة، ومهمة الغنوص الكشف عن المغزى العميق للعقيدة.

وتحوي الغنوصية حركة فلسفية وتعاليم دينية متنافرة تأخذ شكل أنساق

أسطورية متنوعة وغير متجانسة انتشرت في الشرق الأدنى القديم في القرنين الثاني والثالث بعد الميلاد. ورغم أن أساطيرها وتعاليمها وأفكارها غير متجانسة، يمكن القول بأن ثمة بنية كامنة واحدة أو نموذج معرفي واحد، ذلك أن المنظومات الغنوصية كافة منظومات كمونية حلولية واحدية تبحث عن مبدأ واحد مطلق يحكم الكون بأسره، كما تبحث عن قانون شامل من غير ثغرات يعبِّر عن الواحدية الكونية التي ترد الكون بأسره إلى مبدأ واحد ومن ثم يذوب الكل في الجزء وتصبح الركيزة النهائية كامنة في المادة، ولذا يتحقق النموذج في لحظة التوحد الكامل بين الخالق ومخلوقاته (وباختفاء الإنسان في مقولات أكبر منه، أي أنها تنتهي بموت الإله ثم بموت الإنسان).

الإيونات الإلهية

تبدأ المنظومة الغنوصية من نقطة فردوسية لا تحتوي إلا على النور والقداسة، حالة تماسك واحدية عضوية لا يوجد فيها كل منفصل عن الأجزاء، ولا توجد فيها ثغرات ويوجد الإله الخفي deus absconditus وراء البليروما، وهو إله متعال لا يقبل الوصف متجاوز تماماً للدنيا حتى حد التعطيل، غير مكترث بها أو معاد لها، والطبيعة لا تعبِّر عنه أو عن مقاصده. هذا الإله الواحد لم يخلق العالم دفعة واحدة من العدم وإنما من خلال عملية تدريجية من خلال الفيض والصدور ففاضت مخلوقات تُسمَّى الأيونات وهي القوى الروحية الأولية وهي بمثابة تشخُّصات للإله. وأهم الأيونات هي الإنسان نفسه الإنسان الأول وآدم.

معرفة الباطن

وتذهب الغنوصية إلى أن الكون شرير ومعاد، وأن العالم سجن والزمان رديء، وأن الإنسان لا ينتمي إلى هذا العالم وأنه وقع فيه وفي الزمان لا لذنب اقترفه أو لشر متأصل فيه وإنما بسبب خلل كوني أدى إلى تسرُّب بعض الشرارات الإلهية بحيث حُبست داخل المادة. والإنسان هو جزء من هذه الشرارات، فهو ينتمي إلى العالم النوراني، عالم الإله الخفي. ولن يتم الخلاص ولن يبلغ الإنسان الكمال (الذي هو اسم آخر للنجاة والخلاص) إلا من خلال معرفة خفية باطنية (غنوص) تتصل بالحقيقة الكلية الشاملة، وهي معرفة أو عرفان يفضي بالإنسان إلى معرفة

بالإله، فالإله هو في نهاية الأمر الإنسان، والإنسان هو الإله، وقد لخص ثيودوتوس الغنوصية في عبارته الشهيرة، فقال "معرفة من كنا، وماذا أصبحنا، وأين كنا، وفي أي مكان أُلقي بنا، وإلى أي مكان نحث الخطا، وكيف نحصل على الخلاص، وما الميلاد، وما الميلاد الجديد؟".

الصيغة النهائية

وقد أصبحت كلمة «غنوصية» في اللغات الغربية عَلماً على المذاهب الباطنية وعلى الهرطقات الجوهرية التي تقف على الطرف النقيض من العقائد السماوية التوحيدية. ويمكن القول بأن الغنوصية ليست شكلاً من أشكال التصوف الذي يدور في إطار ، فهي تهدف إلى الالتصاق بالإله والاتحاد معه بهدف الوصول إلى المعرفة الباطنية والصيغة النهائية (الغنوص) التي يمكن عن طريقها التحكم في الواقع وفي البشر بل في الإله، فهي شكل من أشكال التصوف الحلولي الكموني ووحدة الوجود الروحية. وهي، في هذا، تشبه القبَّالاه التي تحاول الوصول إلى المعرفة الباطنية ولا تكترث كثيراً بالتمارين الصوفية.

التقابل بين السماء والأرض

وقد أورد كاتب مدخل «الهرمسية» في موسوعة تاريخ الأفكار ما يسميه «مجموعة أفكار الفوضى» (chaos syndrome) يخلق الإله العالم من مادة قديمة. تتم عملية الخلق نتيجة تصادم ضخم أو لقاء جنسي بين عنصرين أساسيين. الخلق يتضمن عناصر من الغريب واللامعقول. التغير والظلام والطمي تنتج الحياة. الثعبان والمخلوقات الهجينة هي رمز الطاقة ويتم تأليهها. العالم جسد يجدد نفسه دائماً، ومن هنا العود الأبدي. «كما هو في الأعالي، كذلك في هذا العالم» أي عقيدة التقابل بين السماء والأرض والعرفان الكوني.

يمكن أن ينزل الإله إلى هذا العالم ليشارك في الأمور الإنسانية ويصبح عاملاً من عوامل إدخال الحضارة. والإله لا يتجاوز عملية التحول والعذاب التي تُعَد جزءاً من عملية الخلق والميلاد. ويستطيع الإنسان أن يرتفع لمنزلة الآلهة.

وعاء الهرطقة

والغنوصية هي النموذج المتكرر والكامن وراء كل الفلسفات والأنساق

الحلولية الكمونية الواحدية (الروحية والمادية) عبر التاريخ، وهي أهم تعبير عن الواحدية الكونية وعن النزعة الطبيعية المادية، وأكثرها تبلوراً، وهي القواعد أو النحو العالمي الكوني للهرطقة، الذي وُلدت منه كل أنواع الهرطقات المادية المعادية للإله والإنسان، علمانية كانت أم «دينية»، وهي هرطقات ليست معادية للإله المتجاوز وحسب وإنما معادية للإنسان . تُلقي الخلفية التاريخية والثقافية للغنوصية الكثير من الضوء على بنيتها.

مكان وزمن الازدهار

ويبدو أن جذورها تعود إلى القرنين الأخيرين قبل الميلاد، وقد انتشرت الغنوصية في المدن الكوزموبوليتانية الكبيرة، مثل الإسكندرية وأنطاكية وروما ومدن آسيا الصغرى، وهي مدن تقع على الحدود بين الشرق المتأغرق وروما، ومع هذا، ظل الشرق مركز جاذبيتها الثقافية.

العالم فاسد

والغنوصية أعلنت أن هذا العالم فاسد تماماً، فسقطت المدن والإمبراطوريات والعالم الطبقي والقوانين الطبيعية والأخلاقية الغاشمة بضربة معرفية واحدة. أما عالم المدينة الوثني الذي يتطلب الانتماء إليه الانتماء للعبادة الوثنية، فإنه يسقط هو الآخر بإعلان أن طريق الخلاص هو العرفان الداخلي دونما حاجة لكهنة أو معابد (وهذا مناسب جداً في اقتصاد مبني على حركة تجارية مستمرة، فأماكن العبادة الثابتة غير صالحة).

التوراة الغنوصية والأناجيل الغنوصية

كانت الجماعات اليهودية من أكثر الجماعات تأثراً بهذه التحولات الغنوصية، فتم فهم نصوص التوراة بالشكل المتوافق مع الغنوصية، وتم استبعاد المسيحية الموحدة للإله التي لا تتفق مع الغنوصية. وفي هذه المرحلة جرى تحريف التوراة والأناجيل، وقد كان اليهود من أكثر الجماعات انتشاراً في المدن الإغريقية، ومن المعروف أنه في المئة الأخيرة قبل الميلاد، كان عدد اليهود في الإسكندرية أكثر منهم في القدس، كما كان عدد اليهود خارج فلسطين أكثر منهم في داخلها. وقد اندمج اليهود في الحضارة الهيلينية بشكل سريع، وفقدت

أعداد كبيرة منهم هويتها، وأصبحت النخبة الاقتصادية بينهم من كبار ملاك الأراضي ومحصلي الضرائب والكهنة مُستوعَبين في النسق الحضاري الهيليني. وقد تُرجم العهد القديم إلى اليونانية، إذ أن أعضاء الجماعة اليهودية في الإسكندرية نسوا العبرية، وقد كان هناك عدد من الفرق اليهودية التي تختلف الواحدة عن الأخرى، من أهمها الجماعات المشيحانية مثل الأسينيين والغيورين وحملة الخناجر. ولكل هذا، فإننا نجد أن الغنوصية (التي تشكل اليهودية رافداً أساسياً فيها) قدمت الحلول الجذرية لأعضاء الجماعات اليهودية من المندمجين في الحضارة اليونانية الرومانية المغتربين عنها. لقد قدمت لهم نسقاً أسطورياً معادياً لليهودية، رافضاً لها، يعدهم بالتحرر منها ومن الرومان في الوقت نفسه، وهذه المعتقدات تمت ترجمتها إلى اليونان أنفسهم، فأصبحت الغنوصية بدورها عقيدة اليونان والرومان في ذلك العصر.

لقاء مع الفلسفة الإغريقية

نبعت الغنوصية من هذه التشكيلة الفريدة، فضمت بقايا العبادات والديانات الوثنية القديمة وأديان الأسرار، ووضعتها في إطار واحد، وفرضت عليها مقولات الفكر اليوناني الفلسفي ومصطلحه (ومن هنا نجد أن الفكر الغنوصي يتسم بأنه تفكير أسطوري بدائي مُختلط بفكر فلسفي مجرد). ومن أهم جذور الغنوصية عبادة بابل التي طرحت فكرة السموات المختلفة التي يتحكم في كل واحدة منها كوكب، كما طرحت فكرة أن العالم مكوَّن من دوائر مركزها الأرض. ومن مصادر الغنوصية الأخرى، العبادات الفارسية بثنويتها الكاملة المتمثلة في الصراع الدائر بين أورمازد إله الخير والنور، وأهريمان إله الشر والظلام. كما دخلت بعض المفاهيم من العبادات المصرية القديمة، مثل تأليه الإنسان والعنصر الجنسي في عملية الخلق. وامتزج بكل هذا عناصر من الفكر الإغريقي الذي كان ينطوي على الإيمان بأن ثمة حكمة خفية في الأساطير الشرقية. وقد تبنَّى بعض الفلاسفة اليونانيين (الرواقيون مثلاً) أفكاراً من العبادات الشرقية، كما أن عبادات الأسرار (مثل عبادة إيزيس) وجدت طريقها إلى اليونان. وقد قامت الأفلاطونية المحدَثة بالتفرقة وبحدة بين الإله الواحد المتسامي وبين الإله الصانع المادي (Demiurge، وجعلت معرفة الإله الواحد معرفة باطنية غنوصية. ومن أهم مصادر الغنوصية التراث الديني اليهودي.

إمكانية الانقسام الغنوصي

وتتسم الغنوصية، مثل كثير من الحركات الباطنية والحلولية، بأنها سريعة الانقسام وذلك بسبب مركزية الزعيم أو القائد فيها، إذ عادةً ما يتأله ويتحول إلى لوجوس أو مطلق أو تجسُّد للإله في الأرض تدور حوله الجماعة. ولأن المطلق لا يمكن أن يتعايش مع مطلق آخر، لذا يحدث الانقسام. وإمكانية الانقسام هذه تعتبر من أخطر ميزات الغنوصية على الأفراد والبشر كافة. فهذه الميزة هي التي أباحت لليهود إمكانية الانقسامات المتتالية عبر العصور، وسهّلت للمسيحيين إمكانية الانقسام المسيحي حتى تعددت المذاهب وتشعبت.

سيمون والعاهرة المنقذة للعالم

ومن أهم الشخصيات الغنوصية شمعون ماجوس، أي سيمون الساحر (عاش في القرن الأول الميلادي)، الذي يُشار إليه دائماً بأنه أول الغنوصيين. كان من السامريين، وعاش في زمن الحشمونيين. وقد عثر سيمون على عاهرة تسمَّى هَيّلانه في إحدى الحانات، فأعلن أنها صوفيا التي جاءت لإنقاذ العالم وتزوجها وأعلن نفسه المخلّص وآمن بمقدرة السحر على التحكم في العالم. ويبدو أن أتباعه كانوا يقومون بطقوس ذات طابع جنسي، ترخيصي (تأليه الكون). ثم جاء بعده ساتورنيوس من أنطاكية الذي أعاد تفسير قصة المسيح بحيث أعطاها مضموناً رهبانياً ينكر الجنس تماماً (إنكار الكون).

فالانتينوس يؤسس أكاديمية مسيحية

أما أعظم الغنوصيين فكان فالنتينوس، ورغم اسمه اللاتينيّ إلا أنه كان من أصل يوناني وُلد في دلتا مصر عام 100 ميلادية وتلقى تعليمه في الإسكندرية. ولم ينفصل هو وأتباعه عن الكنيسة في الإسكندرية، بل أسسوا أكاديمية للبحث الحر. وقد تبع هذه الأكاديمية شبكة من الجماعات المحلية داخل إطار المؤسسة الدينية، وكان فالنتينوس مشهوراً ببلاغته وعبقريته. وقد رأى فالنتينوس في المنام - حسب ما قال - رؤيا مأساوية، إذ رأى الجزء الذي يصدر عن الكل، هذا الجزء هو ما يشكل أساس الوجود ويُسمَّى «الأعماق»، كما رأى زوجته التي تُسمَّى «الرحمة» أو «السكون». ومن خلال زواجهما يولد المسيح أو اللوجوس الذي تعتمد عليه كل الأيونات. ومن خلال المسيح، أدرك فالنتينوس الكل (بليروما) وذوبان

الذات في الكل. ونلاحظ خروج فالانتينوس عن المسيحية العامة الدارجة آنذاك وتأسيسه لمسيحية غنوصية. تلك التي بدورها انتقلت إلى الروم واليونان.

كنيسة مرقيون

وكان هناك أيضاً مرقيون، وهو من مُلاّك السفن الأثرياء من مقاطعة بونتوس على البحر الأسود. لم يفهم مرقيون سوى فكرة واحدة هي أن الإله، أو المسيح، لم يكن يهوه إله العبرانيين، فهذا هو الإله الصانع. وقد كان مرقيون يقتبس دائماً خطاب بطرس إلى أهل غلاطيا ويبيِّن الفرق بين قانون العهد القديم وقانون العهد الجديد. فمسألة حب الإله غير المشروط للإنسان، التي وردت في إنجيل بطرس، مسألة اكتسحت مرقيون تماماً، فأسَّس كنيسة (مسيحية) منافسة للكنيسة القائمة حينذاك.

عقيدة المسيح إله خفي

ومن أهم المفكرين الغنوصيين باسيليديس الذي كان قائد مدرسة نشيطاً في الإسكندرية في زمن الإمبراطور هادريان (في بداية القرن الثاني الميلادي) وكان يهودياً متأغرقاً رفض فكرة الإله الشخصي وتبنَّى فكرة الإله الخفي وذهب إلى أن المسيح أصبح روحانياً عند تعميده في نهر الأردن (لا عند ميلاده). (وقد ظل باسيليديس عضواً في الكنيسة ولم يُطرَد منها قط، وهذا مما يبين غموض الموقف المسيحي آنذاك من الغنوصية)، ولنتذكر بأن باسيليديس كان يهودياً، ورغم يهوديته فقد اقتحم المسيحية وأدخل إليها عقائد غنوصية.

المذهب المانوي

وأهم دعاة الغنوصية ماني صاحب المذهب المانوي الذي وُلد في فارس (216 ـ 277) ونشأ في مدينة مسيحية يهودية، وتتسم منظومته بالثنائية الحادة، ربما بسبب أصلها الفارسي. ونلاحظ عند ماني امتزاج اليهودية بالمسيحية بالغنوصية، وجعلها جميعاً مجموعة واحدة يمزجها بالشيطانية فيصل إلى عقائد إباحية وحلولية تدميرية رهيبة. ويذكر بأن فكر ماني وديانته قد انتقلت إلى الرومان واليونان في حينها. وقد كان القديس أوغسطين (354 ـ 430)، في بداية حياته، من أتباع ماني، وكتب بعض مؤلفاته أثناء هذه المرحلة.

أناجيل غنوصية

وأهم الوثائق الغنوصية هي نصوص نجع حمادي حيث كانت مصر مركزاً للتفكير الغنوصي. وللغنوصيين كتب مقدَّسة، من بينها: أبوكريفون جون (أي كتاب جون الخفي)، **وإنجيل توماس** (الذي عُثر عليه في مصر)، **وإنجيل فيليب**، و**إنجيل مريم المجدلية**.

حاربت الكنيسة كافة دعوات الغنوصية وبدعها، واعتقدت بأنها قضت على الهرطقة الغنوصية، وبعد موت قيادتها، استمرت الغنوصية على هيئة حركات دينية خارج الديانات التوحيدية وأحياناً داخلها.

الغنوصية التي غزت المسلمين

ويمكن القول بأن منظومة عبد الله بن سبأ هي منظومة غنوصية. ويرى المؤرخون أن التصوف الإسلامي الحلولي المتطرف ذو طابع غنوصي، كما يُصنَّف بعض غلاة الشيعة ضمن الغنوصيين، ويُصنَّف بعض من انشق عن الشيعة باعتبارهم جماعة إسلامية ذات توجُّه غنوصي. ويمكن تصنيف عقيدة البهائية ضمن أشكال الغنوص. ولا تزال هناك فرقة دينية في العراق وإيران تُسمَّى المندائيين وهي فرقة غنوصية يبلغ عدد أفرادها خمسة عشر ألفاً، («مندائي» هي الكلمة الآرامية لـ «غنوص» فالمندائي هو العارف وهي من كلمة «منداء» أو «منداع» بمعنى «معرفة») وتتضمن عقيدتهم التطهر في المياه الجارية وشعائر جنائزية مركبة. فحينما يموت المندائي، يقوم الكاهن بالشعائر اللازمة لإعادة الروح لمسكنها الإلهي حيث ستتلقى جسداً روحياً جديداً، وبهذه الطريقة يتوحد الميت مرة أخرى مع آدم السري (الإنسان الأزلي)، أو المجد، جسد الإله المقدَّس.

الغنوصية المسيحية الأوروبية

وقد ظهرت جماعات غنوصية داخل المسيحية، مثل جماعات **الكاثاري** التي ازدهرت بين القرنين الثالث والحادي عشر في أرمينيا وآسيا الصغرى وشبه جزيرة البلقان ومنها انتشرت إلى غرب أوروبا وخصوصاً **جنوب فرنسا** (الهرطقة الألبيجينية وغيرها). ويُقال إن **فرسان الهيكل** كانوا أيضاً جماعة غنوصية، وأن المنشدين

الذين يُطلَق عليهم لفظ «**تروبادور**»، الذين تغنوا (تأثراً بالعرب) بالحب العذري الذي تحوَّل إلى عبادة العذراء، قد تبنوا رؤية غنوصية للواقع. أما في شرق أوروبا (في بلغاريا وشبه جزيرة البلقان ويوغسلافيا)، فقد ظهرت جماعة **البوجوميل** (أصدقاء الإله). ويُقال إن مسلمي البوسنة والهرسك كانوا من أصول غنوصية، فكأن الغنوصية هنا كانت الأرضية الفلسفية التي رفضوا على أساسها المسيحية وأصبحوا هامشيين بالنسبة لها، ولذا كان من السهل دخولهم في الإسلام مع وصول العثمانيين.

ومن أهم الجماعات الغنوصية جماعات **المنشقين** الذين تركوا الكنيسة الروسية الأرثوذكسية وكان معظمهم من عناصر فلاحية روسية. وكان الريف الروسي وثنياً إلى حدٍّ كبير (حيث دخلته المسيحية في وقت متأخر). ولذا، ظهرت جماعات منشقة عديدة، كانت غنوصية متطرفة رغم استخدامها المصطلحات المسيحية. كان من بينهم جماعة **الخليستي**، أي من يضربون أنفسهم بالسياط (كان منهم راسبوتين)، والجريشنيكي الذين كانوا يؤمنون بالخلاص من خلال ارتكاب الرذائل والموبقات (تأليه الكون)، **والبيزجلوفنسكي** الذين كانوا يلزمون الصمت لمدد طويلة. ومن أهم هذه الجماعات **الدوخوبور** (ومنهم مدام بلافاتسكي التي كان يتردد عليها كثير من رواد حركة الحداثة في الفن والأدب) وهي مؤسسة الجماعة الثيوصوفية في لندن (ماتت 1891). وكان هناك **السكوبتسي**، المخصيون، الذين كانوا يعبِّرون عن إيمانهم بالخالق بخصي أنفسهم (إنكار الكون). وقد تأثرت الحسيدية بهذه الجماعات الغنوصية، وخصوصاً الخليستي.

الغنوصية المتجددة في أوروبا

تمتعت الغنوصية بحركة بعث جديدة حين بدأ الإنسان الغربي مشروعه التحديثي، وإن ثمة علاقة قوية بين الغنوصية والمشروع التحديثي التنويري العلماني الغربي. والمؤسف أن الغنوصية لم تمت ولم تتلاش مع تطور أوروبا بل تم إحياؤها من جديد في عصر التنوير والعلمانية، بل اعتمدت كأسس دينية تبرر العلمانية والتنوير، فهي القادرة على تبرير الإباحية والانحلال الخلقي والتفكك الاجتماعي، وبدعوتها إلى تأليه الإنسان منحت الغربي إمكانية التمرد على المسيحية المؤمنة. وكان لليهودية الفضل الكبير في إحياء العقائد الغنوصية في الغرب، إذ لليهودية مبررات لا أخلاقية لنشر تلك العقائد.

الغنوصية اليهودية

تتسم الغنوصية بتعدد المصادر، وتعدُّد المكونات الثقافية وانعدام التجانس. ومن أهم المكونات، ولعله أهمها ، التراث الديني اليهودي. فإن هناك بُعداً حلولياً كمونياً قوياً في اليهودية جعل لها قابلية عالية لإفراز الفكر الغنوصي. وقد ساهم انتشار اليهود على هيئة جماعات مشتتة داخل تشكيلات حضارية شتَّى، في مدن البحر الأبيض المتوسط وبابل، إلى زيادة عدم تجانس اليهودية بل إلى تنافرها وتحوُّلها إلى عقائد عدة أو ديانة مُهجَّنة. ويظهر هذا في كثير من العقائد اليهودية الثنوية.

وثمة نصوص عديدة في العهد القديم يمكن تفسيرها تفسيراً غنوصياً بكل بساطة. وقد كان الغنوصيون اليهود يشيرون إلى الإصحاح الأول في سفر التكوين (وخصوصاً الفقرة رقم 27 "فخلق الإله الإنسان على صورته، على صورة الإله خلقه، ذكراً وأنثى خلقهم")، وإلى حزقيال 26/1 ("وعلى شبْه العرش شبْهٌ كمنظر إنسان عليه من فوق")، كما أن كتب الرؤى (أبوكاليبس) اليهودية دعَّمت الاتجاهات الغنوصية بتقسيمها الزمان وبكل حدة إلى زمان الفساد الحاضر وزمان الخير المستقبل، وبرؤيتها للتاريخ باعتباره ساحة صراع شرس بين قوى الخير وقوى الشر. كما أن النزعة الحلولية الكمونية القوية في هذه الكتب مهَّدت الجو لظهور الغنوصية. فعلى سبيل المثال، جاء في كتاب حكمة سليمان أن روح الإله (النيوما) توجد في كل الأشياء. وقد انتشرت كتب الرؤى في نهايات الألف الأخير قبل الميلاد، وكثير من عناصرها دخل الفكر الغنوصي.

ويذهب بعض الدارسين إلى وجود غنوصية يهودية قديمة قبل ظهور الغنوصية في العصر المسيحي (واستمر ذلك حتى العصر الحديث بعد أن دخلت التيار الغنوصي الأشمل). وفي كتابات فيلون السكندري ردود على بعض المهرطقين في عصره يُفهَم منها وجود اتجاهات غنوصية.

صياغة يهودية توافق اليونان

تُعَدُّ كتابات فيلون الدينية من مصادر الفكر الغنوصي إذ حاول المزج بين الفكر الديني اليهودي والفكر الإغريقي. ويبدو أن فيلون لم يكن وحيداً في محاولته هذه، فقد نشأ تراث كامل بين يهود الإسكندرية يهدف إلى التوفيق بين اليهودية والفلسفة اليونانية. ولمّا كانت اليونان والروم هي السلطة القابضة والمسيطرة، والمتحكمة برقاب اليهود، فقد كانت كتابات فيلون تندرج في سعيه للتقرب من تلك السلطات وكسب حمايتها. وتكشف نتاجاته عن وجود الإمكانية عند اليهود والقابلية للتغيير الديني والتوراتي والعقائدي كلما اقتضت الضرورة ذلك. وقد وصلت يهودية فيلون إلى العقل الغربي آنذاك. فعرف الغرب اليهودية المزيفة والقابلة للتحوير قبل أن يتعرف على المسيحية.

الصهيونية الغنوصية

الصهيونية تعبير علماني شامل عن المنظومة الغنوصية (الحلولية الكمونية)، أي أنها غنوصية جديدة. ولنحاول أن نرى نقط التشابه بين الغنوصية والصهيونية، ولنبدأ بالخلفية الاجتماعية والثقافية لكليهما. لقد انتشرت الصهيونية بين جماعة من مثقفي شرق أوروبا الذين أدَّى تعثُّر التحديث في بلادهم إلى إغلاق أبواب الحراك الاجتماعي أمامهم، وقد توقَّف حراكهم لأنهم يهود). وكان هؤلاء المثقفون قد اندمجوا إلى حدٍّ كبير في حضارات بلادهم واستوعبوا الحضارة الغربية الحديثة وآمنوا بمنطلقاتها، أي أن هويتهم اليهودية كانت قد ضَعُفت ولكنها لم تختف تماماً، ولذا نجدهم يتنقلون بين الثقافة الروسية واليديشية والعبرية دون أن ينتموا إلى أي منها مطلقاً. ولا يختلف وضعهم هذا كثيراً عن وضع اليهود في المدن اليونانية في حوض البحر الأبيض المتوسط في القرون الأولى بعد الميلاد. ولذا، فإن الحل الصهيوني الحديث، شأنه شأن الحل الغنوصي القديم، يحوي قدراً من الديباجات اليهودية والأفكار الغربية.

والصهيونية، مثلها مثل الغنوصية، ترى أن وجود اليهود في المنفى (بل يهودية المنفى نفسها) يشكلان عبئاً ثقيلاً يحمله اليهودي ويعاني بسببه. كما ترى أن هذه المشكلة لا يمكن حلُّها إلا من خلال الغنوص: وهو حل واحدي جذري بسيط

للأمور، لا إبهام فيه ولا جدل، يفسر كل شيء وينطلق من رفض مبدئي للحدود والثنائيات التي تسم حياة الجماعات اليهودية في المنفى. وقد حل الغنوصيون المشكلة بأن صنفوا الإله الصانع على أنه إله العهد القديم، وأنه هو الذي تسبَّب في نفي اليهود من أصلهم النوراني وقذف بهم في هذه الدنيا وأرسل لهم الشريعة ليثقل كاهلهم بها. وقد انطلق الغنوصيون الصهاينة أيضاً من رفض جذري لحالة النفي، وقد أدَّى ذلك إلى رفض تاريخ اليهود في المنفى، أي التجارب التاريخية المتعينة للجماعات اليهودية في كل أنحاء الأرض. وهم يرون هذا التاريخ على أنه تاريخ معاناة ومآس ومذابح.

والحل الغنوصي الحلولي الكموني لمشكلة اليهود هو أن يعود اليهودي إلى أصله بعد أن يخدع حكام السموات والأرض (الأركون) ليلتحم بالنور (البليروما) وبالإله ويصبح الخالق والمخلوق كياناً واحداً. وكذلك الحل الصهيوني، فهو حلٌّ عضويّ واحدي مبنيّ على العودة إلى الأصل، فاليهودي عضو في الشعب العضوي المنبوذ المنفي، فهو كالإنسان النوراني في العالم المعادي له، عليه أن يجد الحل الجذري والصيغة الملائمة والغنوص (وهي الإيديولوجيا الصهيونية والقومية اليهودية). وهو سيحمل عصاه ويُنهي حالة المنفى تماماً. والصهيوني يقوم بخداع الإله ويكذب عليه مدعياً بأن اليهود قد أبيدوا في الأفران وأحرقوا، وأنهم كانوا قرابين بشرية يهودية مقدمة للإله نفسه وفي هذا السياق تم خدع الإله وبناء على ذلك يحق لليهود أن يعودوا إلى أرض الميعاد التي وعدهم الإله بها بعد أن يقدموا له الأضاحي. وبدلاً من خداع حكام الأرض (من الأغيار) فهو سيتحالف مع بعضهم الإمبريالية العالمية وسيطرد البعض الآخر (العرب) ويعود إلى صهيون ليصبح اليهود كلاً عضوياً واحداً (نورانياً)، فيعيش شعب يسرائيل في أرض يسرائيل مع إله يسرائيل في حالة البليروما الكاملة التي هي بداية التاريخ اليهودي أو استئنافه. إن حل المسألة اليهودية يتم إذن عن طريق إلغائها، بل عن طريق إلغاء الجماعات اليهودية وتصفيتها فيما يُسمَّى «نفي الدياسبورا».

وقد بيَّن أحد الباحثين أن ثمة توتراً أساسياً في اليهودية بين فكرة إله العالمين وفكرة إله الشعب المختار، وأن الغنوصية التقليدية صفَّت هذه الثنائية لحساب الجانب العالمي إذ رفضت إله العهد القديم القومي (وهذا أيضاً ما أنجزته اليهودية

الإصلاحية). ولعل العنصر الغنوصي واضح تماماً في كتابات الحاخام إسحق كوك وفي فكر جماعة جوش إيمونيم التي أفرزت ما نسميه «الصهيونية العضوية الحلولية».

ومع هذا يمكن القول بأن الصهيونية بحديثها عن أنها ستُصفِّي الدياسبورا وأنها ستجعل اليهود شعباً مثل كل الشعوب وبتأكيدها أن الدولة اليهودية ستصبح دولة مثل كل الدول، هي غنوصية من النوع « العالمي » لأنها تهدف إلى تصفية الحالة اليهودية تماماً.

والقبَّالاه منظومة غنوصية سيطرت على اليهودية الحاخامية ابتداءً من القرن الرابع عشر. ومع هذا لا يمكن الحديث عن تعارض كامل بين اليهودية الحاخامية والغنوصية، المحيطية السائلة.

نقاط التماثل بين المنظومة الغنوصية والقبَّالاه

1 ـ الغنوصية والقبَّالاه منظومتان واحديتان تتداخل فيهما الأسماء والشخصيات والمفاهيم. فالآدم قدمون هو العالم وهو التجليات العشرة النورانية (سفيروت) ومن ثم فهو الإله وهو أيضاً الإنسان. والشخيناه هي التعبير الأنثوي عن الإله، ولكنها في واقع الأمر كنيست يسرائيل، أي الشعب اليهودي.

2 ـ توجد نقط تشابه كبيرة بين الإله الخفي في المنظومة الغنوصية والإين سوف (الجوهر الإلهي اللانهائي والذي لا نظير له) في القبَّالاه:

أ) الإين سوف إله غير شخصي، علاقته بالعالم أنطولوجية، تماماً مثل علاقة الإله الخفي بالعالم في المنظومة الغنوصية، فهو إله لا يكترث بالعالم، ولكنه في الوقت نفسه سبب الوجود.

جـ) تأخذ عملية الفيض شكل درجات تُسمَّى الأيونات في المنظومة الغنوصية والسفيروت أو التجليات النورانية العشرة في القبَّالاه.

و) جماع التجليات النورانية يأخذ شكل إنسان، تماماً مثل الأيونات، هذا الإنسان هو العالم الأكبر (الماكروكوزم) والذي يشاكل العالم الأصغر، أي الإنسان الفرد (الميكروكوزم). وهذا التماثل الكامل بل التطابق بين العالمين تعبير عن البنية والعلاقات الهندسية وعن التماسك العضوي حيث يصبح كل شيء هو

الشيء الآخر.

ز) فاضت كل من التجليات والأيونات من الخالق حتى يتم سد الهوة بين الإله الخفي والعالم (من أجل تحقيق عملية الخلاص). وعملية الفيض هذه لا تعني انفصال التجليات أو الأيونات عن الخالق (فهذا يخلق ثغرة وهو أمر مستحيل في المنظومات الحلولية الواحدية) وإنما هي عملية تمايز وحسب لجوانب مختلفة للمطلق. ولذا، بعد عملية الفيض والتمايز، تشكل الأيونات البليروما وتشكل التجليات هرم الملكوت الملكي.

مفردات الحلولية

مفردات الحلولية التي تُستخدَم في كلٍّ من الغنوصية والقبَّالاه (الجنس - الجنين -الجسد... إلخ): إذ يوجد دائماً أيون أنثوي أساسي في المنظومات الغنوصية هي صوفيا أما في القبَّالاه فهي الشخيناه. تحمل كل من الأيونات والتجليات أحياناً أسماء جنسية وطبيعية مباشرة فتُسمَّى بأسماء أعضاء الجسم الإنساني (وخصوصاً الأعضاء التناسلية). والأيونات مثل التجليات ثمرة الجماع الجنسي بين الإله الأب والأم وهو تزاوج يعني التلاحق الجسدي الكامل وسد الثغرات. ويأخذ الإله أحياناً في كل من القبَّالاه وفي المنظومة الغنوصية شكل إله خنثى (ذكر وأنثى) وتأخذ عملية الخلق شكل انفصال بين العنصرين.

المخلِّص

والمخلِّص في القبَّالاه هو الماشيَّح الذي ينزل في عالم الظلمات أيضاً، وقد يكون هو المخلِّص الداعر الذي يرتكب الموبقات حتى ترهق الطبيعة وهو ما يُسمَّى الهبوط من أجل الصعود وقد يكون راهباً منسحباً، وقد ينتقل من حالة إلى أخرى مثل شبتاي تسفي الذي كان يتأرجح بين الرهبنة الكاملة والعهر الكامل (وضمنه الشذوذ الجنسي)، ومثل البعل شيم طوف مؤسس الحركة الحسيدية الذي يُقال إنه امتنع عن معاشرة زوجته جنسياً لمدة أربعة عشر عاماً، ويذهب أتباعه إلى أن زوجته حملت ابنها هرشل «من خلال الكلمة». ومع هذا كان معروفاً عنه إقباله الشديد على النساء وشغفه بهن، وخصوصاً الجميلات منهن. وكثير من المخلِّصين أسقط الشريعة تماماً. وتحولت نواه مثل «لا تزن» إلى وصايا مثل «فلتزن».

عصر الشيطان في أوروبا

"لم يكن التدين في العصور الوسطى هو الذي خلق محاكم التفتيش بل إنه في نهاية القرن الحادي عشر كان المجتمع الأوروبي كله في انحطاط أخلاقي كامل، وكان أكثر رجال الدين أميّين ويحصلون على مناصبهم بفضل العلاقات العائلية، بل كانت فرنسا تريد التخلص من المتدينين بإرسالهم إلى فلسطين بحجة إنقاذ كنيسة القيامة، للتخلص منهم."

– " البابا يوحنا الثاني عشر كان يعبد الشيطان: فقد انتخب للبابوية عام 955 م. وهو في السادسة عشرة من العمر وكان ابن حاكم روما، فأصبح البلاط الفاتيكاني مرتعاً للنساء المأجورات، وكان البابا يذهب للصيد ويلعب القمار ويغازل النساء. وكان يقيم ولائم الخمر على شرف الآلهة القدماء، ويعرض على الضيوف أن يشربوا بصحة الشيطان. وكانت له خليلة خاصة به. تلك الأمور التي صدمت الرومان. فتم خلع البابا في العام 963 م. "لقد حصلت أهم الانقسامات المسيحية خارج حدود سورية القديمة أي بعيداً عن أرض الديانة المسيحية، وأغلب الانقسامات المذهبية المسيحية حدثت في أوروبا نفسها."

إن صيغة الإبعاد عن الكنيسة التي ظهرت في القرن الثالث عشر والتي استخدمت بشكل دائم في الفترة الواقعة بين القرنين السادس عشر والثامن عشر والتي كانت تحكم بالإعدام على المتهمين، كانت تقول: **"أدعوك أيها الإبليس مع كل الرسل، ألا يذوقوا طعم الهدوء إلى أن يوصلوا هذا الإثم إلى العار الأبدي إلى أن يقتله الماء أو الحبل. أوصيك أيها الإبليس مع كل رسلك أن تطفئ ضوء عينيه كما أطفئ أنا هذه الفوانيس الآن. وتلك الصيغة تثبت اعتقاد البابا آنذاك بالشيطان."**

لقد قام اليهود بنقل عبادة الشيطان من الفكر الغنوصي إلى الأوروبيين، وبفضل عصور الانحطاط والجهل الأوروبيين انتشرت هذه العقيدة واتسعت رقعتها، إلى أن بلغت رجال الدين المسيحي أنفسهم آنذاك.

الشيطانية الحديثة

عرفت عبادة الشيطان منذ قرون في نيو أور لينز بالولايات المتحدة

obeikandi.com

الأمريكية، وانتشرت بعد ذلك إلى باقي الولايات والدول الغربية عموماً. ومعروف أن عبدة الشيطان، يدورون في ملكه الشرير، حول ثلاثة محاور أساسية:

1- الطقوس الرافضة للأديان. 2- الموسيقا الصاخبة.3-السحر الأسود.

وهذه الجماعة تدعي أنه من خلال طقوسهم يمكنهم الحصول على القوة الشيطانية، لديهم كتاب ديني يسمى "الإنجيل الأسود" من تأليف أنطون لافيه مؤسس كنيسة الشيطان في سان فرانسيسكو". هذه المجموعة تتكون من طبقات، فمنهم من يسمى بالأمير وكذلك الشر.

عبادة الشيطان قديمة بدأت منذ آلاف السنين، و لكنها تطورت عبر القرون لتشمل

"عبادة الشيطان" نفسه، حيث عرفت بادئ ذي بدء في التقاليد المسيحية اليهودية Judeo-Christian كنوع من التحرر و الاستقلالية عن الإرادة الربانية، و إنه يجب وجود نوع من القوة المضادة للقوة الربانية الخيرة the all-good بقوة أخرى لخلق نوع من التوازن الوجودي، هذا إضافة إلى اعتبار الشيطان في الديانة اليهودية كملاك يعمل لمصلحة الرب لاختبار المؤمنين الحقيقيين و معرفة نوايا الناس الحقيقية. عندما انتشرت المسيحية و ديانة الإسلام ظهرت هذه الحركات كنوع من الرفض للفرض الحاصل لاتباع تعاليم هذه الأديان embodiment، ما أدى إلى ظهورها كحركة علنية بعد الثورة الفرنسية عندما أطيح بسلطة الكنيسة و تم اتباع الأعراف العلمانية.

عند عبدة الشيطان وسيلة لتعطيل الحواس البشرية، ونوع من أنواع التخدير العقلي، حتى تُقبل أفكارهم دون تمعن أو تفكر . موسيقا الهافي ميتل (البلاك ميتال) Heavy Metal، هي صنف صاخب ومثير للجدل.

يميل عبدة الشيطان إلى هذا النوع الصاخب من الموسيقا حيث تم توظيفها لتكون الموسيقا طقس من طقوس عبدة الشيطان.

يحدث في بعض حفلات موسيقا البلاك و الهفي ميتل الإيقاعات الصاخبة، فيبدأ الحفل بتدخين جماعي للمخدرات أو الخمور ثم ينطلق مع دوران الرؤوس رقص هائج يتم خلاله تحريك الرؤوس بقوة بينما الأعين مغمضة تحت الأضواء

الشفافة، ويرفع الراقصون أذرعهم إلى أعلى كما لو كانوا يدعون شيطانهم الأكبر إلى الحلول بينهم، وهم يلوحون في الهواء بأيديهم راسمين تحية الشيطان. ويمارس أفراد هذه الحركة الشذوذ الجنسي على مختلف أنواعه وحتى مع الأموات والحيوانات. ومن طقوسهم يقومون بتقديم قرابين للشيطان عبارة عن ذبح قطط أو كلاب التي تعد في معتقدهم حارسة للعالم.

حسب معتقداتهم يرتبط اللون الأسود بالشر والموت وأشد أنواع السحر هو السحر الأسود والشيطان لا يحب النور بل يحب الظلام، علامات الإناث عابدات الشيطان طلاء الأظافر والشفاه باللون الأسود ، وارتداء الملابس المطبوع عليها نقوش الشيطان والمقابر والموت ، والتزين بالحلي الفضية ذات الأشكال غير المألوفة التي تعبر عن أفكارهم ، مثل الجماجم ورؤوس الكباش ويخزن شرائط كاسيت مسجلاً عليها أغانيَ فيها ازدراء.

عقائد المانوية

المانوية ذات الأصل الغنوصي دخلت إلى أوروبا كرد فعل على مذابح كنائس محاكم التفتيش، فاعتقد المانويون بضرورة الانعتاق من هذا العالم المخيف. فكان لابد من إماتة الروح وذلك بقتل الرغبات وبالزهد الكامل وبالصوم. وأن لاضرورة للزواج ولا للأسرة ويمكن إضناء الجسد بطريقتين إما بالمجون الهائج أو بالزهد التام. فالمجون ينهك الروح، وكان الألبيغيون لهذا السبب يقيمون حفلات تهتك ليلية. وكانت تجري في ظلماتها انتهاك الجسد. فلا يعرف أحد ينتهك من الآخر. وكانت الظلمة شرطاً لتلك الحفلات لأنه إذا أحب أحد الآخر فسوف يتعلق به وسوف يحب الرجال نساءً، وهذا تعلق بالعالم الحسي، وهو مرفوض. لأن لا ضرورة للزواج ولا للحب بل يجب الانسحاب من العالم المحسوس والاشمئزاز منه. وفي الموقف من العالم المادي كان كل شيء مسموحاً عند هؤلاء. وقد حظي هذا المذهب الجديد بنجاح هائل في القرن الثاني عشر الأوروبي. ولم يسْع الأوروبيون للتعرف على دوغماتية

المانوية بل اكتفوا بتطبيق شرائعها المتناقلة. وكان الإمبراطور هنري الرابع عدو البابا يؤمن بالمانوية. أما ريتشارد قلب الأسد فقد أعلن بوضوح عن مانويته. وقال بأن كل أفراد أسرة بلانتاغين جاؤوا من الشيطان وإليه يعودون. ويقول المؤرخ الروسي ليف غوميليوف بأن تلك العقيدة التي ألغت الضمير لم يؤمن بها في القرن الثاني عشر الملوك فحسب بل انتقلت إلى رجال الدين المسيحيين والرهبان والنساجين والفرسان والفلاحين والفقراء وعلماء القانون والمتشردين الأميين." ثم ظهر عنهم مذهب الألبيغيون هؤلاء الذين امتنعوا عن قتل أي حيوان من ذوي الدم الحار.

"الغنوصيون الإسكندرانيون: باسيليوس وفالينتين، انتقلوا إلى روما في القرن الثاني للميلاد، وهناك عرضوا فكراً غنوصياً دينياً كما انتقلت العقيدة المانوية إلى أوروبا عبر الأنطاكي (ستورنيل) الذي أقام في روما. فامتدت المانوية فيما بعد من الصين وحتى مدينة تولوز الفرنسية."

المسيحية الشرقية

فيما أخذ الرومان مسيحية متأثرة باليهودية، واعتنقوها وجعلوها دين الدولة وانتقلت عنهم إلى مناطق عديدة واسعة في أوروبا، ظلّت المسيحية الشرقية محافظة على أسس وتعاليم وعقائد واستمرت طوال القرون الماضية، ولم تتأثر بالأحداث والتهديدات الكثيرة التي واجهتها طوال تلك القرون.

فالعقيدة المسيحية هي الرسالة التي أُنزلت على عيسى ابن مريم مكمِّلة لرسالة موسى عليهما السلام، ومتممة لما جاء في التوراة من تعاليم، موجهة إلى بني إسرائيل، وداعية إلى التوحيد والفضيلة والتسامح، ولكنها جابهت مقاومة واضطهاداً شديدين، فابتعدت كثيراً عن أصولها الأولى لامتزاجها بمعتقدات وفلسفات عديدة. وقد مرّت النصرانية بعدة مراحل وأطوار تاريخية مختلفة.

المرحلة المسيحية الأولى

وهي العقيدة المُنزَّلة من عند الله التي جاء بها عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام، ويعتقد المسلمون بأنها ديانة الإسلام التي أنزلها الله على آدم وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليه السلام. وهذا الاعتقاد الإسلامي لا ينقص من (الاعتقاد المسيحي) شيئاً بل يزيده بعداً وشمولية، ويجعل المسيحية جزءاً من المشروع الإلهي الكبير المخصص للبشرية.

ولد النبي

كانت مريم العذراء قانتة عابدة لله تعالى، حملت بعيسى من غير زوج بقدرة الله تعالى، وولدته عليه السلام في مدينة بيت لحم بفلسطين، وأنطقه الله تعالى في المهد دليلاً على براءة أمه من بهتان بني إسرائيل فجاء ميلاده حدثاً عجيباً على هذا النحو ليلقي بذلك درساً على بني إسرائيل الذين غرقوا في الماديات، وفي ربط الأسباب بالمسببات، وليعلموا بأن الله تعالى على كل شيء قدير. ويتفق المسلمون والمسيحيون على هذه الرواية كلها.

بُعث عيسى عليه السلام نبيًّا إلى بني إسرائيل، مؤيَّداً من الله تعالى بعدد من المعجزات الدالة على نبوته، فكان يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيها فتكون طيراً بإذن الله. ويبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله. كما كان يخبر الناس بما يأكلون وما يدّخرون في بيوتهم بإذن الله. وقد أيده الله هو وحواريِّيه بمائدة من السماء أنزلها عليهم لتكون عيداً لأولهم وآخرهم. ويتفق المسلمون والمسيحيون على هذه النقاط أيضاً.

ويعترف اليهود اليوم بأنّ اليهودية تآمرت على قتل المسيح برئاسة الحبر الأكبر (كايافاس) وأثاروا عليه الحاكم الروماني لفلسطين (بيلاطس) لكنه تجاهلهم أولاً، ثم لما كذبوا عليه وتقوَّلوا على عيسى عليه السلام بأنه يدعو نفسه مسيحاً ملكاً، ويرفض دفع الجزية للقيصر، دفع ذلك الحاكم إلى إصدار أمر بالقبض عليه، وإصدار

حكم الإعدام ضده عليه السلام. ثم اختفى عيسى وأصحابه عن أعين الجند، إلا أن أحد أصحابه دلَّ جند الرومان على مكانه، ومن هنا ستختلف الرواية الإسلامية عن مثيلتها المسيحية. إذ يعتقد المسيحيون بإلقاء القبض على المسيح وصلبه ثم قيامته بعد الصلب،

بينما تقول الرواية القرآنية والتي يعتقد بها كافة المسلمين بأن اللّه سبحانه ألقى بين أيديهم شبه عيسى عليه الصلاة والسلام وصورته عليه، ويقال إنه يهوذا الإسخريوطي وقيل غيره، فنُفِّذ حكم الصلب فيه بدلاً من عيسى حيث رفعه اللّه إليه، على أنه سينزل قبل قيام الساعة ليحكم بالإسلام، ثم يموت كأي من البشر.

ويلاحظ في الروايتين تشابهاً في الحكم على عظمة المسيح وعلى رفعته عن أن يظلم ويصلب. فهو أرفع من أن يصلب في نظر المسيحية نفسها وتعبّر المسيحية عن ذلك في أنه قام بعد الصلب متحدياً أن يظلم. وفي الرؤية القرآنية للحدث يكون المصلوب شخصاً آخر، ويكون اليسوع قد رفع إلى السماء. ليكون إلى جوار ربه. وفي هذه الرواية الإسلامية يكون تعظيم المسيح فيها أكثر مما منحته الرواية المسيحية نفسها. فالمسيح هنا أعظم وأكبر من أن يلقى عليه القبض ويصلب. ويذكر هنا بأن المسلمين عموماً لا يستطيعون ذكر المسيح إلا بوصفه بأرفع الكلمات تلك نفسها التي يصفون بها محمداً . فيقولون: **عليه الصلاة والسلام**. وإن أصدق موقف إسلامي عن المسيح والمسيحية هو تلك الصور والصفات التي جاءت في القرآن الكريم. فإن كل ما ورد في القرآن الكريم يظهر صورة تعظيم كبير للمسيح ولأمه البتول ولرسالته السماوية السمحة. وبنفس الوقت فهو لا يترك مجالاً للمسيحية لأن تعتبر الإسلام أجحد بحقها ولا بنقطة واحدة.

ولو أننا تصورنا بأن المسيحي اعتقد بالمسيحية التي رسمها القرآن الكريم في آياته، فإنه سيبقى على عقيدته ولن يتغير فيها إلا تفاصيل صغيرة: عندئذ لن يأخذ برواية تاريخية تقول بصلب المسيح وقيامته بعد الصلب، وسيأخذ برواية تقول بأن المسيح ظلّ حياً ولم يصلب. وفي كلتا الروايتين يكون المسيح حياً في النتيجة، ويكون قد صعد إلى السماء

إن فعل الصلب قد تم حسب الروايتين الإسلامية والمسيحية.

كان فعل الصلب مواجهة وتحدياً للمسيحية ومحاربة لها وللمسيح . وجاء من

جانب الكفر اليهودي. ويتفق الإسلام مع المسيحية على هذه الرؤية.

الإسلام والمسيحية يستنكران فعل الصلب باعتباره مواجهة وتحدياً للديانة المسيحية السماوية وليسوع المسيح نفسه.

تختلف طريقة الاستنكار هذه ، فقد عبّر الإسلام عنها برؤيته أن المسيح لم يصلب نهائياً، وعبّرت المسيحية عن هذا الاستنكار بقولها أنه قام بعد صلبه.

وآمن بدعوة المسيح الكثير ولكنه اصطفى منهم اثني عشر حواريًّا كما هم مذكورون في إنجيل متى. ويضاف إليهم الرسل السبعون الذين اختارهم المسيح لينشروا الرسالة وليعلّموا المسيحية في القرى المجاورة. واجهت المسيحية أشد الإيذاء والتنكيل بالأتباع والحواريين بوجه خاص؛ حيث قُتل يعقوب بن زبدي أخو يوحنا الصياد فكان أول من قتل من الحواريين، وسجن بطرس، وعذب سائر الرسل، وحدثت فتنة عظيمة لأتباع المسيح حتى كادت النصرانية تفنى وتختفي في أول عهدها.

وفي ظل هذه الأجواء المضطربة أعلن شاول الطرسوسي اليهودي الفريسي، صاحب الثقافات الواسعة بالمدارس الفلسفية والحضارات في عصره، وتلميذ أشهر علماء اليهود في زمانه عمالائيل، أعلن، إيمانه بالمسيح.

انطلاق الدعوة المسيحية

ومن بلداننا العربية هذه، ومن هذه البقعة التي يعتبرها المسلمون أرض مقدسة وأرض الأنبياء والرسل من هنا انطلقت مسيحيتنا إلى جهات الشرق والغرب . وظلت كنائسنا هي الراعي الصحيح للمسيحية العالمية، والمراقب والحكم. فقد انطلق الحواريون للتبشير بين الأمم في البلدان المجاورة، وذهب متَّى إلى الحبشة، وقُتل هناك بعد أن أسس فيها كنيسة ورسَّم لهم أسقفها. وكذلك فعل مرقس في الإسكندرية بعد أن أسس أول مدرسة لاهوتية وكنيسة فيها بتوجيه من بطرس الذي أسس كنيسة روما وقتل في عهد نيرون عام 62م. أما بولس فذهب إلى روما وأفسس وأثينا وأنطاكية، وأسس فيها كنائس ورسَّم لهم أساقفة. وفي أحد جولاته في أنطاكية صحبه برنابا فوجدا خلافاً حادًّا بين أتباع الكنيسة حول إكراه الأمميين على اتباع شريعة التوراة فعادا إلى بيت المقدس لعرض الأمر على الحواريين لحسم الخلاف بينهما. وكان ذلك

أول خلاف يحدث بين المسيحيين أنفسهم. فيما بين عام 51 – 55م عقد أول مجمع يجمع بين الحواريين تحت رئاسة يعقوب بن يوسف النجار، وفيه تقرر: استثناء غير اليهود من الالتزام بشريعة التوراة على أنها خطوة أولى يُلزم بعدها بشريعة التوراة. كما تقرر فيه تحريم الزنا، وأكل المنخنقة، والدم، وما ذُبح للأوثان، بينما أبيحت فيه الخمر ولحم الخنزير والربا.

دعوة للتخلص من التوراة

عاد بولس بصحبة برنابا إلى أنطاكية مرة أخرى، وبعد صحبة غير قصيرة انفصلا وحدث بينهما مشادة عظيمة نتيجة لإعلان بولس نسخ أحكام التوراة وقوله أنها:

"كانت لعنة تخلَّصنا منها إلى الأبد" و"أن المسيح جاء ليبدل عهداً قديماً بعهد جديد"

وحدثت خلافات حول فكرة اتصال الإله بالأرض عن طريق الكلمة، أو ابن الإله، أو الروح القدس، وحول عقيدة الصلب والفداء، وقيامة المسيح وصعوده إلى السماء؛ ليجلس على يمين الرب . وهكذا كرر بولس نفس الأمر مع بطرس الذي هاجمه وانفصل عنه مما أثار الناس ضده، لذا كتب بولس رسالة إلى أهل غلاطية ضمنها عقيدته ومبادئه، ومن ثم واصل جولاته بصحبة تلاميذه إلى أوروبا وآسيا الصغرى ليلقى حتفه في روما في عهد نيرون سنة 65م.

التصدي لبولص

وقد استمرت المقاومة الشديدة لأفكار بولس عبر القرون الثلاثة الأولى: ففي القرن الثاني الميلادي تصدى هيولتس، وإيبيي فايتس، وأوريجين لها، وأنكروا أن بولس كان رسولاً، وظهر بولوس الشمشاطي في القرن الثالث، وتبعه فرقته البولوسية. كما عانت الدعوة المسيحية أشدَّ المعاناة من سلسلة الاضطهادات والتنكيل على أيدي اليهود الذين كانت لهم السيطرة الدينية، ومن الرومان الذين كانت لهم السيطرة والحكم

السياسي،وفي مصر فلسطين اتخذ التعذيب والقتل أشكالاً عديدة؛ مابين الحمل على الخُشْب، والنشر بالمناشير، إلى التمشيط ما بين اللحم والعظم، والإحراق بالنار. وهنا تظهر لنا أهمية مسيحيي الشرق، وأهمية دورهم وتضحيتهم في سبيل نشر العقيدة المسيحية. وهذا يوجب على المسلمين تقدير شأن هذا الكيان المسيحي الصغير العدد والمحافظة عليه، والذي رغم قلة أتباعه بالنسبة لعدد المسلمين فإنه سيظلّ المراقب العام للأصالة المسيحية العالمية والعين الساهرة على منع الانحرافات التي تهددها. وإننا لا يمكن أن نواجه الصهيونية المسيحية التي انتشرت في الغرب إلا من خلال المسيحية العربية الأصيلة.

ثم سعى قسطنطين إلى استمالة تأييدهم له لفتح الجزء الشرقي من الإمبراطورية حيث يكثر عددهم، فأعلن مرسوم ميلان الذي يقضي بمنحهم الحرية في الدعوة والترخيص لديانتهم ومساواتها بغيرها من ديانات الإمبراطورية الرومانية، وشيَّد لهم الكنائس، وبذلك انتهت أسوأ مراحل التاريخ النصراني قسوة.

ظهور الرهبنة والديرية

في خلال هذه المرحلة ظهرت الرهبنة في النصرانية في مصر أولاً على يد القديس بولس الطبي 241 – 356م والقديس أنطوان المعاصر له، إلا أن **الديرية** – حركة بناء الأديرة – نشأت أيضاً في صعيد مصر عام 315 – 320م على يد القديس باخوم، ومنها انتشرت في الشام وآسيا الصغرى. وفي نفس الوقت دخلت غرب أوروبا على يد القديس كاسليان 370 – 425م ومارتن التوري 316 – 387م، كما ظهر مجموعة من الآباء المتأثرين بمدرسة الإسكندرية الفلسفية (الأفلاطونية الحديثة) وبالفلسفة الغنوصية، مثل كليمنت الإسكندري 150 – 215م أوريجانوس 185-245م وغيرهما.

ثبات المسيحية العربية

من الملاحظ أنه عبر تاريخ المسيحية الطويل ظلّت المسيحية العربية محافظة على عقائدها مثبتة لها، ولم تسمح بإحداث أي خرق لها طوال تلك القرون الطويلة. كما

ظلّت المسيحية العربية تمنع كافة الخروقات بقوة. وهذا الثبات له صلة أكيدة بجوار المسيحية العربية للإسلام ولأهله الذين حافظوا على ثبات الإسلام. وهذا أحد جوانب التأثّر المسيحي بالإسلام. ونعتقد بحتمية استمرار هذا الثبات عند المسيحية العربية ومما سيؤدي بالمستقبل إلى مواجهتها الحتمية مع المسيحية الغربية تلك التي شهدت الكثير من التحوّلات والانشقاقات.

ثورة الكنيسة القبطية

لم يعترف أسقف روما **ليو الأول** بقرارات مجمع أفسس الثاني 449م وسعى الإمبراطور مركيانوس لعقد مجمع آخر للنظر في قرارات ذلك المجمع، فوافق على عقد المجمع في القسطنطينية، ثم في كلدونية 451م لمناقشة مقالة بابا الإسكندرية ديسقورس: من أن للمسيح طبيعتين في طبيعة واحدة (المذهب الطبيعي – المونوفيزقية)، ليتقرر لعن ديسقورس وكل من شايعه ونفيه، وتقرير أن للمسيح طبيعتين منفصلتين. فكان ذلك دافعاً أن لا تعترف الكنيسة المصرية بهذا المجمع ولا بالذي يليه من المجامع. ومنذ ذلك التاريخ انفصلت في كنيسة مستقلة تحت اسم الكنيسة المرقسية – الكنيسة الأرثوذكسية – أو القبطية تحت رئاسة بطريرك الإسكندرية، وانفصلت معها كنيسة الحبشة وغيرها، ليبدأ الانفصال المذهبي عن الكنيسة الغربية.

القبطية تنتقل إلى أيرلاندا

اعتنق الأيرلنديون المسيحية على يد القديس باتريك والمبشرين الذين جاؤوا من مصر في القرن الخامس متجاوزين روما. فقد دخل الأيرلنديون والكالتيون في المسيحية قبل أن يظهر المذهب الكاثوليكي أو الأورثوزوكسي. وعندما انتشرت المسيحية في كل أوروبا حافظ هؤلاء على المسيحية القديمة التي تلقوها من خبرات الأقباط المصريين. وظلوا باستمرار على خلاف مع الجوار.ولم يعترفوا طوال العصور بالبابوية الأوروبية. بل إنهم حاربوا ضد العالم المسيحي الغربي بكليته وضد الكاثوليك حتى نهاية القرن الخامس عشر. أي إلى أن احتلهم نهائياً هنري السابع تيودور. وقد قاوم الأيرلنديون هذا الاحتلال وظلوا يقاومونه حتى عصرنا هذا انطلاقاً من أسس دينية مسيحية.

الكنيسة الأورثوذكسية المصرية

يعتقد أصحابها أن مؤسسها هو مرقس الرسول عام 45 م. وظهرت بوادر الانفصال المذهبي للكنيسة المصرية، منذ أن جعل الإمبراطور ثيودوسيوس كنيسة القسطنطينية هي الكنيسة الرسمية للإمبراطورية الشرقية عام 381م وأن كنيسة الإسكندرية تليها في المرتبة، مما دفع بطريرك الإسكندرية كيرلس عام 412م إلى تولي زعامة الشعب ضد الإمبراطور وعماله في مصر. ثم زادت هوَّة الخلاف بين الكنيستين على إثر إعلان نسطور – أسقف القسطنطينية – مقالته التي تصدى لها كيرلس بطريرك الإسكندرية في مجمع أفسس عام 431م الذي استطاع استصدار حكماً ضد نسطور باللعن والطرد.

بعث فلافيانوس بطريرك القسطنطينية مقالة نسطور مرة أخرى فتصدى لها ديسقورس بطريرك الإسكندرية في مجمع أفسس عام 449م والذي لم يعترف به أسقف روما، فعقد لذلك مجمع كليدونية عام 451م ليقرر لعن ديسقورس ونفيه، بل وتعين بطريرك ملكاني خلفاً له، الأمر الذي دفع الكنيسة المصرية لإعلان عصيانها وعدم اعترافها بمجمع كليدونية عام 451م ولا بقراراته، مما سبَّب عودة الاضطهاد مرة أخرى لحمل الكنيسة المصرية على اتباع عقيدة كنيسة القسطنطينية والتي توافقها عليها الكنيسة الغربية.

هكذا عاشت الكنيسة المصرية سلسلة من المنازعات حول تعيين الأسقف، إلى أن تم الاتفاق عام 482م على أن يختار المصريون أسقفهم دون تدخل من الإمبراطور، فكان هذا التاريخ يمثل بداية الانفصال الحقيقي عن كنيسة القسطنطينية.

مسيحية الأقباط رحّبت بالإسلام

ما إن ظهرت بشائر الفتح الإسلامي منطلقة من الجزيرة العربية حتى رحبت بها الكنيسة المصرية، للتخلص من ظلم واضطهاد إخوانهم مسيحيي الإمبراطورية البيزنطية.

وما إن وطئت طلائع الفتح الإسلامي أرض مصر بقيادة عمرو بن العاص رضي اللّه عنه، حتى أُعيد بنيامين بطريرك الكنيسة المصرية إلى كرسيه، واجتمع به عمرو بن العاص ووافقه على ما أبداه من مقترحات لحفظ كيان الكنيسة، كما وافقه على

تشييد ما دعت إليه الحاجة من الكنائس وتجديد إصلاح البعض الآخر.

تأثر الكثير من النصارى المصريين بعدالة الإسلام، وسماحة مبادئه، حيث ترك لهم حق الاعتقاد وحرية ممارسة العبادة والشعائر الخاصة بهم، كما سمح لهم بالمشاركة في بعض وظائف الدولة الإسلامية، مما فتح قلوبهم لقبول الحق، والدخول في دين الإسلام أفواجاً، وبذلك صارت اللغة العربية لغتهم ولغة البلاد، وأصبح منهم العلماء والقادة فيما بعد.

وفي سنة 1219م قامت الحملة الصليبية الخامسة بقيادة لويس التاسع وحاولت إخضاع الكنيسة المصرية الأرثوذكسية لمذهب الكنيسة الغربية الكاثوليكية. وقد تمكنت في بادئ الأمر من احتلال مدينة دمياط وفرض بطريرك كاثوليكي من الآباء الفرنسيسكان عليها، ليمثّل أول وجود كاثوليكي في مصر، فما إن هب المسلمون لصد العدوان حتى انهزمت الحملة وأُسر قائدها. وفي سنة 1769م أعادت الكنيسة الغربية الكَرَّة، ولكن هذه المرة عن طريق المفاوضات والمصالحة، وعرض انضمام الكنيسة المصرية إليها، ليقابلها بطريرك الكنيسة المصرية يؤانس الثامن عشر بالرفض التام.

بدأت بوادر حركة إصلاح وتطوير الكنيسة المصرية في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، وبخاصة في عهد البطريرك كيرلس الرابع 1854 – 1862م .التي زاد نشاطها واستطاعت تأسيس مراكز للدعوة إلى مذاهبهم في صعيد مصر بوجه خاص. وكانت استجابة بعض الأرثوذكس لهم دافعاً للقيام بهذه الإصلاحات وافتتاح مدارس للبنين والبنات، وإنشاء المدرسة البطريركية، بالإضافة إلى إدخال أول مطبعة إلى مصر.

ثم تصدى البطريرك ديمتريوس الثاني 1862- 1874م للتبشير الكاثوليكي والبروتستانتي في مصر، بإصدار قرارات الحرمان ضد المرسلين الأمريكيين ومن يتصل بهم من الأقباط. وازدادت حملة الكنيسة المصرية ضراوة ضد إرساليات الكنائس الغربية في مصر في عهد البطريرك كيرلس الخامس 1874 – 1927م حيث أغلق مدارسهم، وأصدر قرارات تَعتبر هذه الكنائس وإرساليتها وتابعيها ومن ينضم إليها من الأقباط مهرطقين، ولم يفلح تدخل القنصل الأمريكي وليم تاير والمنصِّر جون هوم في

إقناع البطريرك من أن نشاطهم غير موجه ضد الأرثوذكس. يُعد حبيب جرجس 1867-1951م من أبرز رواد الإصلاح والتطوير في الكنيسة المصرية، حيث أنشأ مدارس الأحد والمدرسة الإكليريكية، ودعم وساهم في العديد من الأنشطة الاجتماعية والثقافية552، فظهرت المجلات والجرائد الدينية المسيحية، كما أنشأ العديد من المدارس والمكتبات ودور النشر التي تهتم بنشر التعاليم المسيحية بين المسلمين. وازدادت تبعاً لذلك عدد المؤسسات الاجتماعية المختلفة التي تخدم الأرثوذكس، كل هذا بغية التصدي للإرساليات التبشيرية الغربية. ومما لا شك فيه أنّ تلك الأنشطة الثقافية والفكرية كانت قد ساهمت في تحريك الفكر الإسلامي نفسه، وفي تطوير الطباعة ودور النشر في مصر كلها. وفي عهد الخديوي إسماعيل دخل عدد كبير من الأورثوذكس القضاء والمجالس النيابية وكلّف الأقباط بالخدمة العسكرية، وازدهرت المسيحية القبطبية آنذاك وبرز فيها أشخاص عديدون ومنذ ذلك العهد دخلت القبطية مرحلة جديدة في تاريخها.

تطوّر الكنيسة القبطية

خطا البطريرك كيرليوس السادس 1959 – 1969م خطوات جديدة نحو تطوير الكنيسة؛ حيث أنشأ العديد من الأسقفيات، منها أسقفيات الخدمات ومهمتها العلاقات الخارجية والاتصال بالكنائس الأخرى، سواء كانت الكنائس الغربية ومؤسساتها أو بالكنائس القبطية خارج مصر، وأسقفية للخدمات والشؤون المالية وإصدار طبعات جديدة للكتاب المقدس، ووضع دائرة معارف قبطية، كما أنشأ أسقفية للتربية الكنسية مهمتها الإشراف على كليات اللاهوت ومدارس الأحد وجميع شؤون التعليم والتربية الكنسية.

واستغلالاً للثقل الدولي للكنيسة بعد انضمامها إلى مجلس الكنائس العالمي، ومجلس الكنائس العالمية العاملة في إفريقيا، وتعاونها مع مجلس كنائس أمريكا زاد الضغط على الحكومة لإلغاء النظام الهيومانوي .

وأنشئت العديد من الكنائس وفي عام 1971م تولى البابا شنودة الثالث رئاسة الكنيسة المصرية واسمه **نظير جيد**، فقد تخرج من كلية الآداب جامعة القاهرة،

والتحق بالقوات المسلحة كضابط احتياط، ثم عمل صحفياً وكاتباً وشاعراً، وتسمى باسم شنودة الثالث. وفي عهده زاد التوجه السياسي للكنيسة المصرية وتقديم مفهوم جديد للنصرانية على أنها دين ودولة، مستخدماً في ذلك سياسة الانتشار الدولي، والتقارب مع الكنائس الغربية ومؤسساتها لدعم السياسات الداخلية للكنيسة وتحقيق أغراضها، كما أعلن عن تنظيمات جديدة للكنيسة، ودعا إلى تطوير الكلية الأكليريكية وإعادة الكنيسة إلى مكانتها العالمية، فزاد اهتمامه بإنشاء الكنائس في الخارج وعيّن لها الأساقفة،وتحت رئاسة وإشراف البابا شنودة تعددت الاجتماعات ذات الصبغة الدينية والسياسية، التي تطالب بإعطاء الكنيسة الأرثوذكسية في مصر دوراً فاعلاً في السياسة، وأن يكون لها نصيبها من المناصب الوزارية. والموافقة على إنشاء جامعة للأقباط على غرار جامعة الأزهر.

وزادت في عهده أيضاً وبشكل ملحوظ النشرات والكتب، وحملات التنصير، مما أشعل المواجهات بين المسلمين والنصارى فيما عرف بأحداث الفتنة الطائفية (الزاوية الحمراء ومناطق مختلفة من صعيد مصر) الأمر الذي دعا الرئيس السادات إلى عزله ونفيه في دير وادي النطرون.

وقد أفرج عنه وعاد إلى كرسيه في عهد الرئيس مبارك. وتعكس هذه الحادثة ومثيلاتها أسباب الشقاق المستمر حتى يومنا هذا بين السلطة في مصر والمسيحيين الأقباط. الأمر الذي انعكس على الشارع المصري، إذ لا تتوقف أعمال الخلافات المشحونة بالطائفية بين المسلمين والأقباط هناك. ومن البدهي التنبؤ بأن تلك الأحداث الطائفية ستتوقف نهائياً بعدما تتصالح السلطة المصرية مع الأقباط.

محاولات فصل الأقباط عن العروبة

في مطلع أيلول 2007 صدر في الولايات المتحدة تقرير جاء فيه أن الأقباط يعانون من تمييز عنصري وطائفي في مصر. وردّاً على ذلك التقرير التقى البابا شنودة في الثامن عشر من الشهر مع وزيرة الخارجية المصرية وأخبرها بأنه لا يوافق على التدخل الأمريكي في شؤون الأقباط. وأنه ينتقد التقرير الأمريكي ويعتبره لا يتوافق مع الواقع المصري. وهذه المرة أيضاً يعبّر الأقباط عن انتمائهم الصحيح للمجتمع العربي المصري. وليست هذه هي المحاولة الغربية الأولى لتسييس الأقباط، وغيرهم من المسيحيين العرب.

فالغرب حاول مئات من المرات عبر القرون الماضية استمالتهم وجعلهم ذراعه في المنطقة العربية وتسييسهم لصالحه، ورغم ذلك لم يقدر على كسب أية جولة من تلك الألاعيب.

الحكومة المصرية تعادي الأقباط

بالعودة إلى العقود الماضية نلاحظ استمرار الخلاف الحكومي المصري مع الأقباط. فقد اصطدم معهم عبد الناصر. وتلاه في الصدام أنور السادات الذي اعتقل البابا شنودة وتلاه أيضاً حسني مبارك الذي زج الكثير منهم في السجون.

هذا الصدام الحكومي مع الأقباط انعكس على المجتمع المصري ككل. وبرر للمصريين حمل المشاعر الطائفية تجاه الأقباط. وهو الصدام الذي صنع هذه المشاعر والتي اختلطت بالمواجهات وأعمال القتل والحرق وغير ذلك. في حين نرى أن الدول العربية التي تحمي مسيحييها تقلّ فيها أو تنعدم المشاعر الطائفية.

ومما تقدم تصبح الحكومات المصرية المتعاقبة هي المسبب في الأحداث الطائفية في مصر حسب تصورنا، ودليلنا على ذلك هو التفاهم الديني المستمر بين المسيحيين والمسلمين في سورية ولبنان في حين ظلّت الحكومات المتعاقبة في هاتين الدولتين متفاهمة ومتصالحة مع المسيحيين.

وتستمرّ الخلافات بين الحكومة المصرية والأقباط حتى يومنا هذا ومازلنا نسمع كل يوم عن اعتقالات لناشطين أقباط، وأخطاء فادحة يرتكبها بعضهم بحق الأديان وبحق الدين الإسلامي. ففي مصر العديد من المواقع الإلكترونية (إسلامية ومسيحية) التي تمارس مجابهة طائفية حادة بين الأقباط والمسلمين. وتدرج مواضيع ومقالات شديدة الحدة والعدائية.

المسيحيون الكلدان

في السادس عشر من آذار 2007 عثر في شمال العراق على جثة رئيس طائفة المسيحيين الكلدان في مقبرة. ولعلّه من شديد الحزن أن يختطف ويقتل هذا الزعيم المسيحي العربي. الكلدان من الأقوام السامية الذين يتحدثون باللغة الآرامية، يعيشون في شمال العراق وجنوب شرقي تركيا و شمال غربي إيران.

عاش الكلدان منذ القدم بالقرب من عاصمة الآشوريين، نينوى التي تقع في

العراق و يسمى بالوقت الحاضر بمدينة الموصل.

الاسم " كلدي، ظهر في وثائق التاريخ حوالي 900 قبل الميلاد. في البداية نجد الكلدان كقبائل آرامية في بابل. وفي عام 625 قبل الميلاد فتحوا بابل وأسسوا إمبراطورية بابلية كلدانية عظيمة استمرت لغاية عام 539 قبل الميلاد حيث سقطت على يدّ كورش الفارسي. وهم يذكرون في سفر أيوب (1:17) من العهد القديم. في عام 627 قبل الميلاد أصبح نابوبالاسار، بمساعدة القبائل الكلدانية ، ملكاً على بابل عندما أصبح نبوخذ نصر الكلداني (604-562) ملكاً على بابل وصلت بلاد ما بين النهرين إلى ذروة العظمة والمجد وأصبحت العاصمة بابل حسب الكتاب المقدس "بهاء الممالك وزينة فخر الكلدانيين" (إشعيا 13:19)، **"بابل كاس ذهب بيد الرب تسكر كل الأرض. من خمرها شربت الشعوب من أجل ذلك جنت الشعوب"** (إرميا 51:7). وكانوا من أوائل من اعتنقوا المسيحية حيث كانو حتى سنة 1552 جزءاً من الكنيسة الشرقية الآشورية إلى أن انفصلوا وقاموا بتأسيس الكنيسة الكاثوليكية الكلدانية. يقدر عدد الكلدان بحوالي 2.5 مليون نسمة في مختلف بقاع العالم حيث يعيش حوالي 100000 في الولايات المتحدة الأمريكية. وفي العراق يحكى اليوم عن الخوف من اختفاء الكلدان بالكامل بسبب حروب الإبادة والتصفية والتهجير التي يتعرضون لها. ويحض الكلدان على التشبّث بالخصائص العقيدية الدينية التي تميزهم عن غيرهم من المسيحيين، وعلى لغتهم القديمة التي تميزهم كقومية مميزة.

المارونية السورية

المارونية، طائفة من طوائف النصارى الكاثوليك الشرقيين، قالوا بأن للمسيح طبيعتين ومشيئة واحدة، ينتسبون إلى القديس مارون ويعرفون باسم الموارنة متخذين من لبنان مركزاً لهم.

وتنتسب هذه الطائفة إلى القديس مارون الذي عزل نفسه في الجبال والوديان مما جذب الناس إليه مشكّلين طائفة عرفت باسمه، وكانت حياته في أواخر القرن الرابع الميلادي فيما كان موته حوالي سنة 410م بين أنطاكية وقورس.

وقع خلاف شديد بين أتباع مارون وبين كنيسة الروم الأرثوذكس مما اضطرهم

إلى الرحيل عن أنطاكية إلى قلعة المضيق قرب أفاميا على نهر العاصي مشيدين هناك ديراً يحمل اسم القديس مارون. وقع كذلك خلاف آخر في المكان الجديد بينهم وبين اليعاقبة الأرثوذكس من أصحاب الطبيعة الواحدة عام 517م مما أسفر عن تهديم ديرهم فضلاً عن مقتل 350 راهباً من رهبانهم.

وخلال فترة الرحيل نالهم عطف الإمبراطور مرقيانوس الذي وسّع لهم الدير عام 452م. وعطف الإمبراطور يوستفيان الكبير 527-565م الذي أعاد بناء ديرهم بعد تهديم اليعاقبة له. وكذلك عطف الإمبراطور هرقل الذي زارهم سنة 628م بعد انتصاره على الفرس.

احتكم الموارنة واليعاقبة عام 659م إلى معاوية بن أبي سفيان لإنهاء الخلاف بينهم، لكن الخصومة استمرت، إذ حدثت حروب انتقامية بين الطرفين مما أسفر عن هجرة الموارنة إلى شمالي لبنان وهو المكان الذي أصبح موطناً لهم فيما بعد.

ظهر في موطنهم الجديد بلبنان القديس يوحنا مارون الذي يعتبر صاحب المارونية الحديثة

ولد يوحنا مارون في سروم قرب أنطاكية، وتلقى دراسته في القسطنطينية. وعيّن أسقفاً على البترون على الساحل الشمالي من لبنان.

يعتقد الموارنة بأن في المسيح طبيعتين ولكن له مشيئة واحدة لالتقاء الطبيعتين في أقنوم واحد. ولم تقبل الكنائس النصرانية الأخرى هذا الرأي، فدعوا إلى مجمع القسطنطينية الثالث الذي عقد سنة 680م وقد حضره 286 أسقفاً وقرروا فيه رفض هذه العقيدة وحرمان أصحابها ولعنهم وطردهم وتكفير كل من يذهب مذهبهم. وتصدى يوحنا مارون بجيش من الموارنة لجيش قاده يوستفيان الثاني الذي أراد هدم معابدهم واستئصالهم إلا أن الموارنة هزموه في أميون مما أظهر أمرهم كأمة جبلية أصيلة ذات شخصية مستقلة. ثم تحايلت كنيسة روما بعد ذلك عليهم في سبيل تقريبهم منها حيث قام البطريرك الماروني أرميا العمشيتي بزيارة لروما حوالي سنة 1113م وعند عودته أدخل بعض التعديلات في خدمة القداس وطقوس العبادة وسيامة الكهنة. ولقد زاد التقارب بينهما حتى بلغ في عام 1182م إعلان طاعتهم للكنيسة البابوية، أما في عام 1736م فقد بلغ التقارب حد الاتحاد الكامل معها فأصبحت الكنيسة المارونية بذلك

من الكنائس الأثيرة لدى باباوات روما.

وكان لويس التاسع أول صديق فرنسي لهم، إذ تقدم إليه عندما نزل إلى البر في عكا وفدٌ مؤلف من خمسة عشر ألف ماروني ومعهم المؤن والهدايا، وقد سلمهم بهذه المناسبة رسالة مؤرخة في 1250/5/21م فيها تصريح بأن فرنسا تتعهد بحمايتهم فقد جاء فيها: "ونحن مقتنعون بأن هذه الأمة التي تعرف باسم القديس مارون هي جزء من الأمة الفرنسية". ومن هنا نشأت واستمرت العلاقة التاريخية الحميمة مع الفرنسيين. واستمر هذا التعاطف من الغرب مع الموارنة في الأجيال التالية وذلك عندما أرسل نابليون الثالث فرقة فرنسية لتهدئة الجبل عام 1860م وكذلك بعد الحرب العالمية الأولى عندما صار لبنان تحت الانتداب الفرنسي. ومن مشاهير المارونيين العرب: تيوفيل (تيوفيلوس) بن توما من شمال سوريا، ماروني، كان يعمل منجِّماً في قصر الخليفة العباسي المهدي 775-785م كما قام بترجمة إلياذة هوميروس. والمؤرخ إسطفانوس الدويهي المشهور، الذي توفي سنة 1704م. والبطريرك جرجس عميرة، الذي ألّف أول غراماطيق سرياني واضعاً قواعده باللاتينية تسهيلاً على المستشرقين دراسة هذه اللغة. ويوسف حبيش وبولس مسعد ويوحنا الحاج والبطريرك إلياس الحويك.

ومن الأساقفة المطران جرمانوس فرحان ويوسف سمعان السمعاني ويوحنا حبيب ويوسف الدبس. ومن بيوتاتهم المعروفة آل خازن ودحداح وحبيش والسعد وكرام والظاهر والبستاني والشدياق والنقاش والباز.. ومن زعاماتهم المعاصرة: آل جمَيِّل، وشمعون، وفرنجية، وإده، وغيرهم، ويذكر بأن المطربة العربية الكبيرة فيروز مارونية أصيلة غنّت لمكة وللقدس ولدمشق ولبيروت. وقد اتسمت كل عطاءاتها بتعزيز التلاحم بين المسيحية والعروبة والإسلام.

ومن تنظيماتهم السياسية الحزبية العسكرية حالياً: حزب الكتائب وحزب الأحرار. وهم بشكل عام يحافظون على أصالتهم وعروبتهم وعلى العلاقة الحميمية الطبيعية التي تربطهم بالمسلمين كافة.

ومنذ عام 1943م حتى اليوم استقر الأمر بأن يكون رئيس الجمهورية اللبنانية من الطائفة المارونية وذلك بموجب الميثاق الوطني الذي تم فيه الاتفاق شفوياً بين المسلمين والنصارى حول توزيع المناصب الرئيسية للدولة اللبنانية على مختلف الطوائف الدينية

فيها.

عقيدة الطبيعة الواحدة للمسيح

أهم نقطة تميزهم عن بقية الطوائف النصرانية هو معتقدهم بأن للمسيح طبيعتين وله مشيئة واحدة وذلك لالتقاء الطبيعتين في أقنوم واحد. وعقيدة المشيئة الواحدة التي قال بها بطريرك الإمبراطور هرقل أيضاً 638م ليوفق بين عقيدة أصحاب الطبيعة الواحدة الذين يشكلون الأكثرية من رعاياه النصارى في سوريا وبين أصحاب العقيدة الأرثوذكسية للكنيسة البيزنطية، ويعتقدون أن خدمة القداس عندهم مأخوذة عن تلك الخدمة التي ينسبونها إلى القديس يعقوب، كما يعتقدون أن هذه الخدمة إنما هي أقدم خدمة في الكنيسة المسيحية إذ إن أصولها ترجع إلى العشاء الرباني الأخير.

وما تزال الكنيسة المارونية تحتفظ باللغة السريانية في القداس إلى يومنا هذا وتعبّر بذلك عن أصالتها المسيحية الشرقية.

منذ القرن الخامس عشر الميلادي أصبح دير قنُّوبين شمالي لبنان فوق طرابلس المبني في صخر من صخور وادي قاديشا (أي المقدس) مقراً للبطريركية المارونية، كما أصبحت بكركي المبنية فوق جونية المقر الشتوي حتى يومنا هذا، إذ لا يزال سيد بكركي يلقب ببطريرك أنطاكية وسائر الشرق ؛ ذلك لأنه مستقل عن سائر البطاركة الشرقيين.

عصر الإسلام في الغرب

اتسم مسلمو الأندلس بالانفتاح الحضاري الواسع على الآخر، وبالتسامح وبالقابلية للاندماج الاجتماعي والثقافي والفكري. وللتعرف على ذلك الانفتاح نتصفح كتاب **ثقافة التسامح في إسبانيا الوسيطة** الذي صدر في العام 2002، لمؤلفته الكاتبة الإسبانية مينوكال. التي نعتبرها شاهد أوروبي مسيحي على ازدهار الحضارة الإسلامية الأندلسية. إذ تصرّ المؤلفة على أن الحداثة الأوروبية تعود في كثير من مظاهرها وأفكارها إلى ما قدمته الأندلس من نموذج حضاري وإنساني، وترى أن تعايش الديانات السماوية الثلاثة في ظل الإسلام بالأندلس العربية يظل

حلماً إنسانياً مفتوحاً على المستقبل. وتمتد الفترة التي تعرضها المؤلفة من منتصف القرن الثامن الميلادي إلى بداية القرن الثالث عشر، وتنطلق المؤلفة من افتراض أن استقرار الأمويين بأوروبا يعتبر حدثاً حاسماً أسّس أوروبا الحديثة وصنعها صنعاً، وتتوقف الكاتبة أمام أشكال التأثير التي مارستها الحضارة العربية على العموم والأموية على الخصوص، الغنية والمركبة والفريدة في نوعها، في الثقافة الأوروبية الحديثة، ومن خلالها في حضارة العالم بأسره. وتتحدث عن الحوار والتسامح بين الديانات الثلاث التي تعايشت في الأندلس آنذاك، ومن التساكن الذي غلب على تجاوز القيم الثقافية المتنافرة والمنتمية إلى شعوب وجماعات إثنية متنوعة.

وتعتبر أن قرطبة الإسلامية كانت **عاصمة العالم**. وتصف غناها المذهل وحماماتها العمومية التسعمئة، وحوانيتها التي تصل إلى عشرات الألوف، ومساجدها التي بلغت الألوف، وماءها المسكوب في القنوات، وشوارعها المبلطة. كانت قرطبة جوهرة العالم الساطعة التي تلمع في الغرب، مدينة النبل، معروفة بثرواتها وبكبريائها، يحتفي بها لملاذها ومتعها، متألقة في كل شيء، لامعة على الخصوص بالعلوم العقلية السبعة.

وتقول الكاتبة وهي تحدثنا عن إنشاء لؤلؤة قرطبة ومسجدها "إن مشروع قرطبة والأندلس كان يتمثل في السعي إلى إعادة إنتاج ما دمر في سوريا، وهذا يفيدنا كثيراً في فهم انشغال الأمويين بالحفاظ على هذه الدولة وتعددها الإثني والديني ."

وتنقل الكاتبة نصاً لبول أليفار القرطبي المسيحي يقول فيه: "يعشق المسيحيون قراءة الأشعار والقصائد العربية، ويدرسون الفقهاء والفلاسفة العرب، لا من أجل الرد عليهم أو مجادلتهم، وإنما من أجل اكتساب عربية جيدة وأنيقة . هل يوجد من بين غير المتدينين من لم يزل يستطيع قراءة الحواشي على الكتابات المقدسة باللاتينية، أو كيف يعكف على دراسة الأناجيل أو الأنبياء والدعاة والمبشرين؟ للأسف، فبحماس يقرأ الشبان المسيحيون ويدرسون الكتب العربية، إنهم ينفقون أموالاً طائلة في جمع مكتبات هائلة. يحتقرون الأدب المسيحي، ويعتبرونه غير جدير بالاهتمام. ومن فرط ذلك نسوا لغتهم. فمقابل كل رجل قادر

على كتابة رسالة باللاتينية، هناك ألف يتحدثون العربية بأناقة، وينظمون بهذه اللغة الأشعار.

وإن ظاهرة تعلم العربية إلى حد الإتقان أدّى إلى الاعتناق الكثيف للإسلام، إذ كانت جموع غفيرة تغادر الكنيسة وتنضم إلى الدين الجديد. وتصاعد اعتناق الدين الجديد وتعلّم اللغة العربية الفاتنة حتى تعربت المسيحية واليهودية بكتبها المقدسة وصلواتها الخاصة، فأطلق العرب على هؤلاء اسم "المستعربين." وبفضل التلاقح والافتتان تولدت لغة جديدة هي "الموزاراب" وتسللت إلى البيوت منتقلة من جيل إلى جيل ، فعاشت "الموزاراب" اللغة الرومانية لمسيحيي الأندلس في حضن دار الإسلام، وكانت تحاذي العربية وتحاورها باستمرار. ويتحدث بعض اليهود المعاصرين اليوم وهم جماعات دينية معادية للصهيونية عن ازدهار اليهود في الأندلس الإسلامي ويصفون تلك المرحلة بأنها أفضل مرحلة ازدهار عرفها اليهود طوال تاريخهم الطويل. وتكتشف الكاتبة الإسبانية ازدهار اليهود في قرطبة الإسلامية وتقول: اختار اليهود الأندلسيون طريق الاندماج في الثقافة العربية الإسلامية، وانفتح الباب على مصراعيه أمام وجوههم، حتى بلغوا أعلى المراتب عن جدارة وكفاءة، وبرز منهم من وصل منصب وزير الخليفة . ويعتبر حسداي بن شبروت نموذجاً لثقافة الاندماج والتسامح، وهذا بعد أن كانوا يحتلون أسفل المراتب الاجتماعية والثقافية في عهد القوط المسيحيين. ومع ذلك لم تؤاخذ العشيرة اليهودية حسداي على النجاح الذي حققه داخل الخلافة، بل بقي "ناصي" العشيرة وأميرها، وكان يرتفع شأنه في كل سنة، فعاش اليهود حالة التفتح والرخاء التامين. ومن مظاهر تأثير الاستعراب في الثقافة اليهودية والديانة اليهودية عودة الحياة للغة العبرية وخروجها للمرة الأولى منذ آلاف السنين من المعابد لتصبح متعددة الاستعمال، وتنظيم شعر حي يفيض بالعذوبة والجمال. فقد تأثّر اليهود بشيوع اللغة العربية وباعتبارها لغة القرآن ولغة اللسان الدارج في وقت واحد. اكتشفوا من جديد موروثهم الخاص الذي كان مستتراً منذ زمن، ورأوا أن لغة التوراة تستحق، مثل لغة المسلمين أن تتجاوز حدود الصلاة ."فتجاوزت الصلاة إلى الغزل والحب وغير ذلك. فظهرت لأول مرة في تاريخ اليهود أشعار حب وغزل باللغة العبرية. واعتبر اليهود هذه

العبرية لغة مقدسة رغم أنها لم تكن فيما مضى لغة التوراة. لقد حكم مسلمي الأندلس بالإسلام السني الذي ننتمي نحن إليه اليوم، وكانوا أكثر انفتاحاً على الآخر منّا نحن المسلمين المعاصرين. فلماذا تراجعت فينا مفاهيم التحاور والتمازج والانفتاح؟ أليس لأننا نبني أحكامنا على أسس غير متينة؟ هذه الأسس التي هي أحداث مرحلية غير ثابتة.!. هذه التي تتمثّل بالصراع العربي الإسرائيلي ودعم حكومات الغرب لإسرائيل واحتلال جيوش الغرب للعراق وضغوطهم على الكثير من الدول الإسلامية: هذه الأحداث عنونت طريقة الأسس الثابتة عند المسلمين في تعاملهم مع الغرب. لكنّ الأسس الثابتة يجب أن تقوم على قواعد وقوانين إسلامية ثابتة. كان العصر الأندلسي عصراً ذهبياً بالنسبة للمسلمين وللمسيحيين ولليهود أيضاً. والفضل في زهائه لا يعود على المسلمين وحدهم بل أيضاً على المسيحيين الأوروبيين أنفسهم الذين كانوا على درجة من الارتقاء تفوق ارتقاء الأوروبيين المعاصرين. والذين تفهموا أهمية الحوار والتفاعل الحضاري وحصدوا ثمراته. فقد أقبل الإسبان آنذاك على الإسلام بكثرة. وكان إسلامهم متحضراً ينمّ عن تفهمهم للديانات السماوية لدرجة أنهم خلطوا بين الإسلام والمسيحية فظهر بعضهم كأشخاص يعتنقون الديانتين ويؤمنون بهما ويمارسون الطقوس والعادات والعبادات والمعاملات بصفتين دينيتين في وقت واحد. وعندما همّ المسيحيون المتعصبون بذبح مسلمي إسبانيا والتخلّص منهم نهائياً. تقول وثائق المحاكمات بأنه كان من العسير على القضاة معرفة المسيحي من المسلم. فالمسلمون الذين أريد القضاء عليهم تبين بأنهم مازالوا أيضاً مسيحيين وبأنهم لم يختلفوا في شيء يمكن ملاحظته عن مواطنيهم المسيحيين. ورغم تلك الشبهة فقد كان يباد بالمحرقة أو يقطع رؤوس كل من كان مشبوهاً بانتمائه للإسلام. وذلك الظلم الكبير الذي مارسته المسيحية المتطرفة آنذاك لجم أفواه الأوروبيين طوال قرون عن ذكر كلمة إسلام. فوقع الغرب في عقدة الخوف من الإسلام ومن عودته وتمدده.

الحوار الإسلامي القديم مع الغرب

بالوقوف على النتاج الفكري والأدبي والفلسفي الذي ازدهر في الأندلس،

نحاول الكشف عن النمط العلائقي الذى تشكّلت منه الروابط الثقافية، بين الثقافة "العربية الكلاسيكية" وثقافات الشعوب الأخرى، خلال عصور الازدهار، وسنكتشف بأنّ النتائج المتمخضة عنها، تفصح عن علاقة فعليّة قويّة وحقيقيّة ربطت الذات العربية فى تلك الآونة بالذوات الحضاريّة الأخرى، ولعلّ الانفتاح الذهني الذي كان يتمتع به أجدادنا قد حرمنا منه نحن الأسلاف المعاصرين.

لأنهم كانوا يواجهون الآخر بدون عقدة ولأننا نستمر اليوم في الحكم على هذا الغرب كله من منظار عقدة شديدة العمق في أغوارنا. فلا يستطيع الفرد منا أن يذكر الغرب بدون أن يذكر تاريخ المجد الإسلامي في تلك القارة الغنية.

فالمسلمون الذين يقصدون أوروبا لأجل التعلّم والدراسة فيها يعتقدون بأنهم أصحاب حق في نهل هذه العلوم العلوم الغربية، اعتماداً على رأي مسبق يحملونه وهو أن لأجدادنا الفضل العلمي على الغرب كله، بل ويقول البعض اليوم بأن الغرب أخذ من علومنا ما ينفع ويفيد وترك لنا العادات والموروث الثقافي الذي لا يفيده فوائد مباشرة.

لقد كانت عمليَّة النَّهل من جميع الثقافات المبثوثة فى العالم أمرًا محببًّا عند أجدادنا المسلمون وكانت جزءًا لا يتجزأ من تكوين الذات المجتمعية، حيث يبدو أيّ علم مبثوث في الكون هو ملك الجميع، ولا ينحصر في أحدٍ دون سواه. وذلك انطلاقاً من المفهوم القرآني للعلوم وللتعلّم. بينما اليوم يتخلّى بعض المسلمين عن علوم كثيرة، بل إنهم أحياناً لا يعتبرونها علوماً. كعلوم الموسيقا والرسم الزيتي والنحت والأدب والمسرح والرقص.

وقد شكّلت حركة الترجمة والتأليف من قبل دورًا بارزًا فى نمو الحضارة العربية، فى ظلّ أجواء تفتّح ثقافيّ مميّزٍ ومبدع ، لم تخش فيه الذات العربية من "الغزو الفكري أو الثقافي "، فلم يكن المترجم العربي وقتها يخشى على هويَّته من الضياع، بل كان يعدّ أي علم منتشر في الإنسانية هو جزء من كينونته. وقد لعبت اللغة دورًا محوريًّا في هذا التواصل الحضاري والتفاعل الثقافي انعكس في طريقة الترجمة نفسها، مما ميَّز المترجمين العرب بقدرة عالية على هضم النصوص المترجمة، وتطويعها، وإعادة انتاجها، بمفردات الثقافة العربية، حيث كان يبدو

وكأن النص المترجم هو عربي الأصل والمنشأ والغاية والهدف، فقد كان المترجم يؤقلم النص ويضمّه الى اللغة ويقضي على عناصر الغرابة فيه، الأمر الذي يوصف بابتلاع النص أسلوبًا ومضمونًا، بحيث يتم إدخال النصوص المترجمة في دائرة الأنا "العربية" شعورًا بأنّ هذا النص هو ملكها ذائباً فيها، لذلك فإنها في مرحلة متقدمة تستغنى عن "الأصل بلغته الأساسية" لأنها رقت به إلى لغتها وأصبح جزءًا من مفرداتها بل ويخدم أهدافها.

وفي هذا السياق كان المترجمون العرب والمسلمون يترجمون الأسماء فيعرّبون أسماء الأشخاص والمدن ويعرّبون المصطلحات ومفردات النظرية الجديدة التي يقومون بتعريبها. ويبتدعون مصطلحات جديدة. ولم تكن هناك خشية على تأثير النصوص على الفكر والعقيدة الإسلامية، فكانت الجرأة في ترجمة الفكر اليوناني الذي يحمل عقائد وثنية وإلحادية تؤله الأشخاص والأشياء كالشمس والقمر والرياح والنار. وتقدّس سلسلة طويلة من الأشياء.

وكان في تلك الفلسفات عقائد دينية وطقوس وعبادات كثيرة، لم ير المعرّبون فيها خطراً على الإسلام. بينما مسلمونا المعاصرون يرون أخطاراً على الدين والعقيدة في أفكار ومظاهر غربية شديدة الصغر كالخطر الذي رآه البعض في (لعبة باربي) فنحن في عصرنا الحاضر نفتقر لعملية الترجمة بكامل تفاصيلها. وقد وقف العرب تقريباً عند نتاج الغرب في سنوات الستينيات من القرن الماضي. إذ أنجزت ترجمات العظماء حتى ذلك التاريخ أمثال هوغو وراسين وفولتير وكانت وديكارت وبلزاك وكامو وغيرهم.

وترجمت روايات عالمية أمثال آغاثا كريستي وغيرها. وتوقفت بعد تلك العقود أعمال الترجمة الحقيقية المستمرة. وفي هذه السنوات تصدر من هنا وهناك ترجمات قليلة ونادرة لبعض النتاجات الغربية. لكنها لا تغطي مجمل الحركة الثقافية والفكرية والعلمية الغربية. هذا من ناحية الكم أما من الناحية التقنية فينقلب المشهد ويتحول من تفاعل إلى انفعال ومن "تواصل" إلى "انوصال" وتبعية بلهاء، ويصبح "التثاقف" فيه "انثقاف" ويغدو "التحاور" فيه "انحوار". فالعرب ينتقون مترجماتهم انتقاءً مزاجياً بحيث يتفق الموضوع المترجم مع وجهات النظر

والإيديولوجيات والسياسات الشائعة فحسب. فقد ترجم غارودي لأنه يساند القضية العربية والإسلامية. ولأنه تحوّل إلى الإسلام. وترجم نعوم تشومسكي لأنه يعادي السياسات الأمريكية والإسرائيلية.

ولعلّ القارئ العربي المنحاز أيضاً هو الذي يشارك في اختيار الموضوع المترجم الى العربية. وهذه الترجمات الانتقائية قليلة الكمّ والتنوع مقارنة مع النتاج الغربي والعالمي الكثيف. وفي المجالات العلمية كافة تندر الترجمات مما يجعلنا متخلفين علمياً عن العالم المعاصر. وتعاني الذات العربية اليوم انجراحًا عميقًا لم يجد ترياقه بعد، لذلك فإنها تلجأ الى الماضي بقوّة تبحث في التاريخ متمسكةً "بهويّةٍ مقدسةٍ خالدة" محدثة قطيعة حادّة مع غيرها من الذوات الحضارية، وفي الوقت عينه الذي تطلب فيه من الآخر الاعتراف الدائم بها. فعلى صعيد اللغة، نحن اليوم لا نشعر أننا نرقى بالنص عندما ننقله إلى العربية، ولا نشعر بذوبان النص المترجم في ذواتنا، ويبقى بعيدًا غريبًا نافرًا عنا، بل وأبعد من ذلك، فنحن اليوم نرقى بالنص العربي عندما نترجمه إلى غير العربية! وهناك العديد من الكتّاب والمفكرين العرب ممن يعمد الى الكتابة أو النشر الأول للكتاب بغير العربية، ثم يترجم كتابه ليقرأه العرب بعدما قرأه أبناء الغرب، لأن المرور عبر لغة الآخر هو الطريق المضمون للوصول إلى القارئ العربي! فلو أنّ هذا الكتاب الذي بين يديك الآن عزيزي القاريء كتب بلغة أوروبية وترجم إلى العربية لكان انتشاره العربي أكبر بكثير من انتشاره الحالي ككتاب عربي. هذا رغم أن الكتّاب والباحثين الغربيين لا يفوقونا قدرات ولا معرفة ولاخبرة.

وتكثر في نصوصنا العربية المفردات الأجنبية المنقولة بحرفيتها، ولكن ذلك إن دلّ على شيء، فإنه يدلّ على أن المثقف العربى اليوم لا يتكلم لغته إلا عبر لغة أخرى، فهو بالتالي لا يعترف بذاته إلا إذا اعترف بها الغير، وهو يمارس كلّ ذلك في الوقت نفسه الذي يعمد فيه الى إقصاء الآخر وإبعاده والتعامل معه على أساس أنه "غازٍ وشرير ومتآمر". فنحن اليوم لا نعيش حالة تفاعل حضاري، بل انفعالاً أشبه ما يكون بردّة فعل، لأننا لم نعد ندرك ذواتنا، إلا عبر إدراك الآخر لنا.

صياغة مسيحية جديدة في الغرب

بعدما خرج المسلمون من الأندلس مندحرين خاسرين. التفتت الكنيسة الأوروبية إلى ترميم وإعادة بناء الذات والهوية. خاصة وكان اتّباع العقيدة الإسلامية قد انتشر في أوساط المجتمع الإسباني وغيره من أوروبا. وإن المفاهيم الإسلامية قد تغلغلت في داخل الكنيسة وضمن العقائد المسيحية نفسها. وظهرت في أوروبا بوادر النهضة العلمية والفكرية المتأثرة بحضارة المسلمين في الأندلس. ففي عهدهم تمت ترجمة العلوم الإسلامية واليونانية إلى اللاتينية، وبرز عدد من العلماء الذين بينوا بطلان آراء الكنيسة العلمية وبخاصة في الجغرافيا والفلك، فتصدت لهم الكنيسة استناداً على ما ورد في الإصحاح الخامس من إنجيل يوحنا:

"إن كان أحد لا يثبت فيّ يطرح خارجاً كالغصن فيجف، ويجمعونه ويطرحونه في النار فيحترق".

وتحت ذريعة إعادة تكوين الكنيسة وتنقية الفكر المسيحي من الفكر الجديد الذي يهدده، أبادت الكنيسة مئات الآلاف من السكان الذين يعتنقون الإسلام والمسيحية، واضطر قسم كبير من المسلمين إلى اعتناق المسيحية ليحافظ على حياته.

في تلك المرحلة كان الجهل يسيطر على المجتمع الغربي بكامله تقريباً. وكانت الأمية تعم أوروبا. وكان الحقد على الشرقيين: مسلمين ومسيحيين وأتراك وفرس في أوجه. وفي هذه الأجواء كانت محاكم التفتيش تحرق وتبيد كل من لا يسير في فلكها. هذه الكنيسة المتسلطة على رقاب الجمهور لم تكن في حقيقتها مسيحية، وتؤكد مصادر تاريخية بأن الرهبان والبابا آنذاك كان من أتباع عبدة الشيطان، وثمة نصوص تاريخية تؤكد ذلك. لقد كانت تلك حالة انقلابية ثورية فارغة من المضمون الديني المسيحي، ورغم فراغيتها فقد استخدمت الدين المسيحي كأداة انقلابية لتحكم بواسطتها على الناس.لقد كانت موجهة بالفعل ضد مظاهر الإيمان الديني والاعتقاد التوحيدي. وبسبب فراغيتها من المضمون، فقد استطاع اليهود التنصل إلى داخلها آنذاك بسهولة، وهذا ماحصل في ظاهرة مارتن لوثر الذي هوّد المسيحية. إذ جاء

ليلقي موعظته الإصلاحية أمام الملك والحاشية، فلم يكن بين جميع الحاضرين من يجيد اللاتينية أو يتفهم نصوص العهد القديم.

لقد كانت تلك المرحلة طريقة في التعبير عن الفرحة والاحتفالية بالتخلص من العهد الإسلامي الأموي الذي حكم في المناطق الغربية زهاء سبعة قرون. وكانت تلك الفرحة انتقاماً وانقلاباً عارماً ضد كلّ المخلفات الفكرية والعقائد التي خلّفها المسلمون وأذاعوها في الغرب. فكان القتل عشوائي، وكان الحكم يصدر بتبرئة أشخاص ثم يصدر حكم بعده بإدانتهم.

واستخدمت ضد العلماء رقابة على الكتب لئلا يذيعوا آراءً مخالفةً للعقيدة الكاثوليكية، واتسع تشكيل محاكم التفتيش ضدهم، وقد حكمت تلك المحاكم في الفترة من 1481-1499م على تسعين ألفاً وثلاثة وعشرين شخصاً بأحكام مختلفة، كما أصدرت قرارات تحرِّم قراءة كتب جاليليو وجيوردا نويرنو، وكوبرنيكوس، ونيوتن لقوله بقانون الجاذبية الأرضية، وأمرت الكنيسة بحرق كتبهم وإبادة فكرهم. وقد أحرق بالفعل الكاردينال إكيمنيس في غرناطة ثمانية آلاف كتاب مخطوط لمخالفتها آراء الكنيسة. وكان القسم الأكبر منها إسلامياً.

وفي النصف الثاني من القرن السابع عشر، ازداد غضب الناس والعلماء والفلاسفة من سوء سلوك رجال الكنيسة، ومن الرقابة التي فرضوها على المطبوعات، وتوسُّعهم في استخدام محاكم التفتيش، ومبالغتهم في القسوة والتعذيب ضد المخالفين والعلماء، مما أثار الفلاسفة من أمثال ديكارت وفولتير، الذين وجّهوا سهام النقد إلى الكنيسة وآرائها، ودعوا إلى إعلاء العقل مقابل النصوص الرئيسية، بفرض أن العقل يستطيع إدراك الحقائق العلمية، والخير والشر. وقد تأثر كلّ من روسو وفولتير بالفكر الإسلامي، فكانت نتاجات جان جاك روسو كلها تدعو إلى تطوير الفكر المسيحي، ومنح حريات متعددة للمواطنين: وكانت أول عبارة في كتابه الشهير (العقد الاجتماعي) تقول: **ولد الانسان حراً فلماذا نستعبده** وكتب فولتير (رسائل فلسفية) وفيه انتقادات عنيفة للكنيسة المتعصبة ورسم أفكار وصور نبيلة للمجتمع والسلطة والعقيدة، وكانت كل هذه الصور تتفق مع الإسلام ومفاهيمه. كما وكتب رواية (كانديد

المتفائل) وبدا أن معظم أبطال الرواية مسلمون، وأسماؤهم إسلامية، وأغلب أماكن الحدث هي بلدان إسلامية، وأهم ما في الرواية أن كافة الدروس التي استخلصها فولتير في الإيمان والاعتقاد والحب والسعادة وإصلاح السلطة، كلها كانت تتفق مع العقيدة الإسلامية بل وكانت متأثرة بها بوضوح. ومن أواخر أعمال فولتير مسرحية بعنوان (محمد) وقد صوّر فيها شخصيات الصف الأول من عهد الإسلام بما فيهم شخصية الرسول محمد وشخصية عمر وفاطمة اضافة إلى شخصيات أعداء الإسلام الجاهليين. وقد عرضت مسرحيته لمدة ثلاثة أيام ومنعت بعدها من العرض. إذ وجّهت اليه اتهامات بترويج الفكر الإسلامي وبمهاجمة الكنيسة، وعندما توفي الفيلسوف الكبير فولتير رفضت الكنيسة دفنه في مقابر العظماء، بحجة اتهامه بالأسلمة. ونحن اليوم لا نمتلك دليلاً قاطعاً على أن الرجل قد أعلن إسلامه، وبنفس الوقت نمتلك أدلة كثيرة على أنه اعتنق أفكار ومبادئ وعقائد إسلامية كثيرة، بل وقد سعى لترويجها وإصلاح المجتمع من خلالها. لكن المعارضة الكنسية ومعارضة السلطة لأولئك المفكرين لم تحل دون وصول نتاجاتهم إلى أذهان المجتمعات الغربية. بل إن الكنيسة نفسها تأثرت فيما بعد بذلك النتاج الفكري المتأثر بالإسلام. وهذا يعني أن الكنيسة قد اعتنقت عقائد إسلامية تمت اضافتها إلى العقائد المسيحية على أنها شروح وإيضاحات للعقيدة المسيحية. وفي القرن الخامس عشر والسادس عشر بعد سقوط الأندلس ذبحوا وأحرقوا ما يزيد على 31 ألفاً من المسلمين (حسب بعض التقديرات) ولم يتركوا مسلماً على قيد الحياة. وبعد استقلال اليونان عن الدولة العثمانية أباد النصارى شعب موريا المسلم عن آخره، بل ودمروا المساجد، ويذكر التاريخ ما فعله الأسقف مكاريوس بمسلمي قبرص، والمتعصب جوليوس نيريري بمسلمي زنجبار . إن النصرانية التي يتبناها الفاتيكان اليوم هي النصرانية السياسية التي يتحكم بها حكام الغرب وسياسييه. وهنا تظهر لنا أهمية المسيحية العربية بالنسبة لنا وضرورة الحفاظ على هويتها وكيانها، وأهمية الحفاظ عليها داخل المجتمع الإسلامي العام. لتكون داعماً لنا في مواجهة الاعتداءات السياسية الغربية.

المسيحيون العراقيون مسلمون

اتخذ المسيحيون موقف المسالم والمحب للعراق وأهله، والساعي للسلام الدائم فيه. ورغم أن جنود الاحتلال هم مسيحيون ويمثّلون المسيحية الغربية القوية عسكرياً. فلم يتحالف المسيحيون العراقيون معها.

وإنهم على الدوام يوافقون على كلّ الحلول التي تؤدي إلى السلام الاجتماعي والوطني. ومن هنا يتوجب علينا أن نثبّت هذ الصفات التي يتحلى بها المسيحيون العرب. فهم أبناء هذه البلاد ويسعون على الدوام لسلامها وأمنها.

في الأيام الأولى لدخول القوات الأمريكية أرض العراق، تحدثت إحدى المواطنات المسيحيات مع إذاعة مونت كارلو وشكت من اعتداءات إسلامية على حرية المسيحيين. وقالت : أجبرونا على لبس الحجاب عند خروجنا من البيت.

فسألها المذيع قائلاً: وأنتم ماهو موقفكم ؟ هل ستوافقون على لبسه ؟

أجابته السيدة: ليس في ارتدائه مشكلة لنا فنحن نوافق على ارتدائه، لكننا نخشى من أية اعتداءات طائفية.

ونتيجة لعنف الحرب وانتشار الطائفية فقد غادر العراق حوالي 50 ٪ من مسيحييه كما تفيد إحصائيات أيار 2007 . وإن استمرار هذه الهجرة يعني جعل العراق خال من المسيحية (لا سمح الله)، ويعني انقراض الديانة المسيحية في العراق. ومن اللافت للنظر بأن أغلب المسيحيون العراقيون الذين قدموا إلى بلدهم سوريا اختاروا الإقامة في مدن وبلدات سورية أغلب سكانها مسيحيون. أي أنها "مناطق مسيحية" بالمصطلح الدارج. وبهذا التجمع المكاني الديني يعاد توظيف التقسيم الطائفي للمجتمع. وهذا ما يتعين علينا ألا نقع فيه.

الإصلاحية اليهودية

تهويد المسيحية وتنصير اليهودية

كانت الكنيسة في عهد لوثر (القرن السادس عشر) تبيع صكوك غفران الذنوب وصكوك التوبة، ويمنحون صكوك الغفران التي تعتق وتسمح بالمرور إلى الجنة! فتأثّر لوثر بتخلف الكنيسة وقرر تقويض سلطة البابا وتغيير ملامح المسيحية.

ولأنه يهودي متعصب فما كان ليقوم إلا بتهويد المسيحية من الداخل. وكانت دعوته في ظاهرها تحمل عنوان الإصلاح المسيحي، لكن حقيقتها كانت إصلاح تهويدي للمسيحية الفاسدة في الغرب آنذاك. فتم من خلاله تهويد المسيحية وتنصير اليهودية. فقام بتعليق احتجاج صارخ على باب كنيسة مدينة فيتنبرج في 31 تشرين الأول 1517 تضمن 95 نقطة طالب فيه بإلغاء النظام البابوي لأنه يمنح قدسية كبيرة للبشر قد يسيئون استعمالها تماماً كما كان شائعاً في الكنيسة الكاثوليكية آنذاك. كما رفض لوثر أن يبقى القسيس بلا زواج مدى الحياة، فأقدم هو على الزواج من الراهبة **كاترينا فون بورا.** وكانت من بين مطالب لوثر أيضاً المساواة بين الإكليروس "رجال اللاهوت المسيحي" والمسيحيين العاديين. غير أن ما سيؤثر على مستقبل الكنيسة الكاثوليكية بشكل عام كان دعوة مارتن لوثر إلى جعل الكتاب المقدس اليهودي المصدر الوحيد للإيمان.

تحجيم دور الكنيسة

دعا لوثر إلى إلغاء الوساطة بين المؤمنين والرب بمعنى إقامة علاقة مباشرة بين العبد والمعبود دون المرور عبر البابا أو أي شخص آخر. فقد كانت العصور الوسطى عصور جهل وانحطاط غربي، وكانت حرجة للغاية. وعندما وافق الرهبان على الاستماع للوثر، ومناقشة حججه، وكان الإمبراطور كارل الخامس الذي لا تغيب الشمس عن ممتلكاته الواسعة، يرأس تلك اللجنة. وجلس إلى جانبه الممثل البابوي الذي كان متحمساً للنقاش مع الراهب الوقح. ارتبك لوثر في البداية ولم يقدر على المدافعة. نظر إليه كارل وقال: ظننت أنه إنسان وإذا به أحمق، أطلقوا سراحه وليعود غداً. وفي اليوم التالي تكلم فأذهل الحاضرين وتحدث بنصوص العهد القديم أمام أشخاص شبه أميين. فقرروا إعدامه. وأرسلوه إلى السجن. لكن الدوق الساكسوني المقرب من اليهود أخفاه في واحدة من قلاعه ووضع له حراساً ومنحه الكتاب المقدس ليترجمه . وظل مذهب مارتن لوثر يسري خفية. ومن هنا بدأ الانشقاق بين شريعتين غربيتين: وهما المسيحية

المتأثرة بعبادة الشيطان وبالغنوصية وهي عقائد جاهلة وبين تلك التي تريد العودة لأصول يهودية وتربط المسيحية باليهودية ربطاً متلازماً. كانت الغالبية العظمى من الأوروبيين أمية لا تجيد القراءة، وكان الكتاب المقدس سميكاً وباللغة اللاتينية ويحتاج لترجمة حسب اللغات المحلية، وتساءل الناس عن المذهب الأصح عن الخلاص ولم يجدوا الإجابة وبنفس الوقت انقسمت أوروبا كلها إلى بروتستانت وكاثوليك دون الاعتماد على القناعة لأن أبناء الغرب كانوا غير راضين عن المنظومة المسيحية وممارساتها في تلك الحقبة وكانت لديهم حاجة للانقسام والتحزب.

إدخال شرائع العهد القديم

إنّ أخطر ما حملته مطالب لوثر تمثّل في دعوته للعودة إلى كتاب التوراة العبرانية القديمة وإعادة قراءته بطريقة جديدة بالإضافة إلى اعتماد الطقوس العبرية في الصلاة عوضاً عن الطقوس الكاثوليكية. وأرسل رسالة إلى البابا ليو العاشر في روما سنة 1520 اتهمه فيها باستعمال الكنيسة الكاثوليكية لتحقيق مصالح شخصية له وللحاشية التي تحيط به، مؤكداً أنه لن يتخلى عن نضاله لتقويض تلك الكنيسة مادام حياً. فجاء رد فعل الكنيسة الكاثوليكية قاسياً حيث اعتبرت لوثر من الخارجين عن الكنيسة وطردته من الديانة المسيحية واتهمته بالهرطقة، وهي تهمة كانت عقوبتها آنذاك الحرق على الملأ.

التنظيم اليهودي السرّي

لجأ لوثر بعد ذلك إلى العمل السري وعمل على استمالة بعض اليهود الذين كان لهم نفوذ كبير في المجتمع عن طريق التأكيد على أن مذهبه الجديد يعيد الاعتبار لليهود الذين كانوا يعانون من ازدراء الكنيسة الكاثوليكية. وأصدر كتابه "عيسى ولد يهودياً" سنة 1523 وقال فيه إن اليهود هم أبناء الله وإن المسيحيين هم الغرباء الذين عليهم أن يرضوا بأن يكونوا كالكلاب التي تأكل ما يسقط من فتات من مائدة الأسياد. وكانت هذه الفترة تعد الولادة الحقيقية والفعلية للمسيحية اليهودية.

ونتيجة لطروحات لوثر شاعت في المجتمعات المسيحية العالمية العودة للكتاب

المقدس واعتبار نصوصه مقدسة عند المسيحية واعتباره مرجعاً دينياً مسيحياً مقدساً، وأصبح في كل بيت مسيحي نسخة من الكتاب المقدس الذي كان من قبل كتاب اليهود وحدهم.

والعقل الواعي الحرّ لا يقبل آرء لوثر تلك، ففيها مغالطات تاريخية وفكرية كثيرة، ويلخص منهج لوثر بنكران الذات دونما سبب مقنع وتسليط الآخر على هذه الذات دون حق تسليطاً مبالغاً فيه.

قيام المسيحية اليهودية

وتقوم المسيحية اليهودية على تفضيل الطقوس العبرية في العبادة على الطقوس الكاثوليكية بالإضافة إلى دراسة اللغة العبرية على أساس أنها كلام الله. ووصلت محاولة استمالة لوثر لليهود من أجل الدخول في مذهبه حداً قال فيه يوماً أمام عدد من اليهود الذين كانوا يناقشونه:

"إن البابوات والقسيسين وعلماء الدين ذوي القلوب الفظة، تعاملوا مع اليهود بطريقة جعلت كل من يأمل أن يكون مسيحياً مخلصاً يتحول إلى يهودي متطرف وأنا لو كنت يهودياً ورأيت كل هؤلاء الحمقى يقودون ويعلمون المسيحية فسأختار على البديهة أن أكون خنزيراً بدلاً من أن أكون مسيحيًا" .

وإن رغبة مارتن لوثر الجامحة في إعادة الاعتبار لليهود و"تمسيحهم" كانت تعود لإيمانه العميق بضرورة وجودهم في هذا العالم تمهيداً لعودة المسيح.

واعتبرت دعواته تلك انقلاباً على موقف الكنيسة الكاثوليكية التي كانت تنظر لليهود على أنهم حملة لدم المسيح عيسى بعدما صلبوه. حيث دأبت الكنيسة الكاثوليكية على تحميل اليهود المسؤولية الكاملة عن مقتل المسيح. وكان بعض المسيحيين في أوروبا يحتفلون بمقتل المسيح عن طريق إحياء طقوس عملية الصلب، بل وكان سكان مدينة تولوز الفرنسية يحرصون على إحضار يهودي إلى الكنيسة أثناء الاحتفال ليتم صفعه من قبل أحد النبلاء بشكل علني إحياء لطقس الضرب الذي تعرض له المسيح من قبل اليهود.

كما أن هناك نصاً في إنجيل متى يحمل اليهود مسؤولية مباشرة عن مقتل المسيح ويذكر بالتفصيل كيف غسل بيلاطس الحاكم الروماني للقدس آنذاك يديه بالماء معلناً براءته من دم المسيح الذي كان اليهود على وشك صلبه قبل أن يصيح فيه اليهود

قائلين "ليكن دمه علينا وعلى أولادنا". وهذه العبارة الأخيرة تطبع الاعتقاد المسيحي الكاثوليكي بشكل مرير ظهر جلياً في الشعبية الكبيرة التي نالها فلم "آلام المسيح" للمخرج المسيحي ميل غبسون الذي حصد مئات الملايين من الدولارات عدا حالات الإغماء الكثيرة التي شهدتها قاعات السينما التي عرضت الفلم في الولايات المتحدة لرجال ونساء مسيحيين لم يستطيعوا تحمل التفاصيل المليئة بالألم التي حفل بها الفلم.

وفي أواخر حياته عدّل لوثر رأيه عن استمالة اليهود وكتب كتاب **"اليهود وأكاذيبهم"** أعرب فيه عن خيبة أمله من اليهود وأقر بالفشل في استقطابهم لعقيدته الجديدة. كما أقر في شبه استسلام تلقفه اليهود قبل غيرهم بأن دخول اليهود في الدين المسيحي لن يتم إلا عبر عودتهم لأرض فلسطين وعودة المسيح الذي سيسجدون له ويعلنون دخولهم في الدين المسيحي حتى يعم السلام العالم. وكانت دعوة لوثر تلك أول إشارة إلى عقيدة عودة اليهود إلى أرض فلسطين. وتلك الإشارة التي وظّفتها الصهيونية سياسياً وجعلتها مشروعاً حقيقياً تمثّل في تهجير اليهود من أوروبا الى فلسطين ثم إقامة دولة إسرائيل على حساب أصحاب الأرض الفعليين وهم العرب الفلسطينيون.

الحلول اليهودي داخل الغرب

لقد انحل اليهود في الغرب داخل المنظومة الغربية وحركتها انحلالاً تاماً، وبنفس الوقت فإن الغرب كله قد انحل داخل المنظومة اليهودية. فإن معدلات الحلولية الكمونية في الحضارة الغربية والمسيحية الغربية تزايدت تدريجياً إلى أن وصل الكمون إلى منتهاه (وأصبح الإله كامناً تماماً في الطبيعة والتاريخ حسب اعتقاد اليهود والغرب المسيحي أيضاً. فظهرت المنظومة العلمانية الغربية. وبهذا المعنى، وُلدت العلمانية من رحم كل من: اليهودية والمسيحية، بعد تراجُع التوحيد والتجاوز ومع تزايُد الحلول والكمون.

وإن بروز اليهود في الحضارة الغربية العلمانية يعود إلى أن مفردات الحلولية هي مفردات هذه الحضارة وإلى أن اليهود (بسبب عمق الحلولية في تراثهم الديني) أكثر كفاءة في الحركة في هذا العالم العلماني الذي يتسم بالواحدية المادية. وقد وُصفت القبَّالاه بأنها تطبيع للإله وتأليه للطبيعة، وهو وصف دقيق للعلمانية التي ترى أن الإله هو المبدأ الواحد الذي يسري في الطبيعة (فيتم تطبيع الإله) والتي

تذهب إلى أن العالم مكتف بذاته (واجب الوجود)، يحوي داخله ما يكفي لتفسيره (فيتم تأليه الطبيعة). وهذه المقولة هي نظرية إسبينوزا كاملةً. كما وُصفت القبَّالاه بأنها تُجنِّس الإله (أي تجعل الجنس هو المبدأ الواحد الذي يُردُّ إليه كل شيء) وتُؤلّه الجنس. وهذه المقولة هي نظرية فرويد في حالة جنينية. ومفردات القبَّالاه (والحلولية الواحدية الروحية) الأساسية (الجسد والتنويعات المختلفة عليه: الرحم ـ الأرض ـ الجنس ـ ثدي الأم) هي نفسها مفردات الحلولية الواحدية المادية، أي العلمانية تقريباً. ولذا، فليس من الممكن النظر إلى إسبينوزا وفرويد باعتبارهما «يهوديين» ولا يمكن رؤية بروزهما وعلمانيتهما الشرسة على أنها نتيجة انتمائهما اليهودي، وإنما يجب أن نضعهما في السياق الحلولي الكموني الواحدي الأكبر، وأن نضع الحضارة الغربية العلمانية ذاتها في السياق نفسه، ومن ثم فإن إسبينوزا وفرويد (اليهوديين) وهوبز ويونج (المسيحيين)، على سبيل المثال، هم تعبير عن النمط الحلولي الواحدي المادي (الغنوصي) نفسه، ومن هنا فإن الجميع يؤمن بالرؤية نفسها ويستخدم اللغة والمفردات نفسها ويصبح الانتماء المسيحي أو اليهودي مسألة ثانوية هامشية، ولا تصلح أساساً للتصنيف أو التفسير، وهذه المسألة الثانوية أدّت في نهاية الأمر إلى تصهين المسيحية أو تهويدها، ويمكن استنتاج العكس في بعض المواضيع فنتحدث عن تنصّر اليهودية.

التصدع في القرن الرابع عشر

في العام **1307** اعتقل فيليب الرابع ملك فرنسا (التيمبليريين) بتهم مختلفة وأعدمهم في العام **1314**.

وفي العام **1309** تم نقل الكرسي البابوي إلى أفينيون تحت رقابة العرش الفرنسي وانتهكت الكنيسة وطبقة الفرسان وتخلت فكرة الملكية البابوية عن مكانها لحساب الملوك الأنانيين السياسية، وكان ذلك نذير العاصفة. وكان الانهيار الحقيقي والانشقاق العظيم بين **1370** – **1415** في انقسام الكنيسة إلى ثلاثة

معسكرات ترأسها بابوات لعنوا بعضهم بعضاً. ومن صفات هذا العصر أن موقف المجتمع من المجرم كان إنسانياً بينما الموقف من العلماء ورجال الدين كان بلا رحمة. وقد أفلست الكنيسة في القرنين الرابع عشر والخامس عشر على يد البابوات والكرادلة الذين حولوها إلى مصدر للدخل.

وكان بيع صكوك الغفران مربحاً، وانخفضت درجة الإيمان الديني إلى أقصى مرحلة لها. فكان يرمى بالمؤمنين إلى القتال في الحروب الصليبية لاسترجاع كنيسة القيامة حسب المفهوم الغربي. وفي تلك القرون عمّت في أوروبا موجة الجهل والأمية وجهل الدين وشرائعه.

محاولات الإصلاح الديني

كانت تجري في الغرب العديد من محاولات الإصلاح الديني التي تنتقد الانحلال والمجون وعقائد الغنوصية واليهودية وعبادات الشيطان والنار وغيرها. والمؤسف أنها كلها كانت تفشل في مهدها وكان يعاقب المصلحين بالحرق ويتهموا أحياناً بأنهم مسلمون.

وفي الغرب يصعب كثيراً أن يقول المرء كلمته الدينية إن كانت على حق. ومازال هذا الظلم موجوداً فلا يستطيع أي غربي اليوم أن ينتقد اليهودية علناً، أو أن يدافع عن المسلمين وعن الشرائع الإسلامية. وإن الملاحقة البوليسية التي تجري للمسلمين والاضطهاد والفوبيا ناتجة عن ذلك السلوك الغربي المعادي لحرية الاعتقاد.

الراهب الدومينيكي سافونا رولا كان كاثوليكياً. وأعلن عن تصوره لإصلاح الكنيسة وانتقد الرسوم والتماثيل داخل المعابد، وقال:

"كفى رسم العاهرات في الكنائس تحت اسم قديسات. إن الرسامين يعبثون بالعقيدة، فكيف لنا أن نصلي؟"

اقتيد رولا إلى المحرقة وأحرقت معه العديد من الأعمال الفنية ، وذلك لأنه انتقد الخلاعة غير اللائقة في المعابد.

لم تكن محاكم التفتيش لتعبر عن إصلاح ديني بل عن إفساد للعقائد الدينية، ولم يكن القائمون عليها من رجال الدين المؤمنين بل كانوا أعداء حقيقيين للدين

وللمؤمنين به. فقد كان المصلحون طوال القرون السابقة يواجهون بالإدانة. ويمكن اعتبار الدكتور روان ويليامز رئيس الأساقفة الأنجليكان مصلحاً دينياً حقيقياً. ومن الضروري التذكير بأن بأن بريطانيا كلها تقريباً انتقدت محاولته واتهمته بالهرطقة ودعت لعزله، وهذا مثال على التعامل الغربي مع المصلحين المسيحيين.

المسيحية فانتزيا للغرب

اعتنق الرومان مسيحية مصاغة وفق حاجته الغربية، وفي مرحلة الاعتناق والتحول الروماني واليوناني إلى المسيحية كانت تجرى على هذه العقيدة عمليات إعادة صياغة متعددة المراحل والتجارب والطروحات، فقد تم برمجتها ومقارنتها مع الفلسفة الإغريقية بكل مدارسها، وجرى عليها مسح فلسفي ويهودي حتى قِبل القادة المحاربون بصيغتها الأخيرة.

وحملوها من الشرق إلى أوروبا وجعلوها ديانة الإمبراطورية الرومانية. فراحت المسيحية تنتشر في أوروبا ومنها انتقلت إلى العالم. لكن منذ عصر الرومان لم يختر الغرب المسيحية الحقيقية بل إنه تعرّف على الغنوصية واليهودية المشوبة بالغنوصية وترجم هذه العقائد ومزجها باللون المسيحي وجعل هذا الخليط ديانة الرومان.

وقبل اعتناقه المسيحية كان الغرب متوحشاً ضالاً. وقذراً. وكانت أبرز سماته هي:

الاستهانة بحياة الإنسان، وممارسة القتل بوحشية، بل والتسلّي والتمتع بمشاهدة القتل والذبح والفتك وإراقة الدماء. ومن ذلك حلقات النزال بين شخصين أو بطلين يشاهدها الملوك والمتفرجين وتنتهي حتماً بموت أحد المتصارعين. وبقي اليوم من تلك العادات التمتع بمصارعة الثيران والتي تنتهي بموت المصارع الشهير أو الثور البهيم. ومن ذلك أيضاً مصارعة الديوك في بعض القرى الغربية.

وكان الغرب يظلم أبناءه ويفتك بهم ويمارس ضدهم استعباداً جائراً وقاسياً. كما كانت حملات الغرب تفتك بالشعوب وتنهب خيراتها.

وباعتناق الغرب للمسيحية لم يتغير العقل الغربي ولم يتهذب الغربي ولم يتحلّ بأخلاق إيمانية جديدة يمكن ذكرها. فالغرب منذ عشرين قرناً مضى ظلّ ماضياً في

قذارته واستعباد الإنسان والفتك بالأرواح ونهب خيرات الشعوب الأخرى.

وقد استشعر فلاسفة الغرب ومفكريه تلك المشكلة فذهبوا في مساعٍ كثيرة لتهذيب الغرب ولتحميله قيماً أخلاقية وإنسانية وعقائدية. واضطر الكثير منهم إلى الاستعانة بنتاج الفكر الإسلامي دون الإشارة إلى مصدره، وقاموا بزرع هذا الفكر بين شتات النتاج الفكري الأوروبي. كما واضطر الغرب للبحث عن بدائل سريعة لحل معضلات القيم في مجتمعاته، فكانت الفلسفة الأوروبية الحديثة هي الملجأ الاضطراري له. وانطلقت الفلسفة من إيطاليا موطن الفاتيكان. وعمّت أوروبا وسعت لتهذيب العقل الغربي. واضطرت الفلسفة أيضاً لأن تستعير من الإسلام فكراً ونهجاً وقيماً كثيرة. وهذه كلها مازالت محفوظة في النتاج الفكري الغربي ومازالت تشهد على أهمية الإسلام بالنسبة للغرب.

أي بعدما عجز الغرب عن التهذّب اعتماداً على القيم الدينية المسيحية ظهرت الفلسفة كبديل عن المسيحية. ولأن مقصد الفلسفة كان تهذيب الأوروبي فقد اضطر الفلاسفة للاستعانة بالفكر الإسلامي ليصبح التهذيب أكثر انضباطاً. ورغم ذلك كله فقد بقيت الفلسفة بالنسبة للغربي مجرد فلسفة وضعية وفكراً بشرياً قابلاً للتغيير والنقد. ولذلك فلم تتمكن الفلسفة من تهذيب الأوروبي بشكل كامل بل قامت بتحسين أخلاقه وقيمه وتوجهاته وقامت بتهذيب دور الدولة التي اضطرت لمنح الفرد المزيد من الحقوق والقيم والحريات. وإذا قارنّا الغرب المعاصر الذي اعتنق المسيحية منذ ألفي عام والذي استفاد من الفلسفة طوال ما يقارب الألف عام نجده لم يتغير كثيراً عن الأوروبي المتوحش القديم.

فالأوروبي اليوم مازال يسعى لنهب خيرات الدول الأخرى. وهو يرتكب مذابح في الدول التي يستعمرها. وإسرائيل هي نتاج أوروبي تسعى لإهلاك المنطقة العربية وتقوم بإبادة الفلسطينيين بشكل يومي. وفي أوروبا نفسها نسمع عن سفاح يقتل خمسين امرأة، وآخر يقتل أطفالاً في مدرسة، وجرائم كثيرة مشابهة وكلها تعني بأن الأوروبي لم يتهذب بعد، وبأنه بعيد عن القيم الدينية والإنسانية. تقول آخر الإحصائيات أنه في الثانية الواحدة تحدث ثلاثة آلاف محاولة انتحار في الغرب وحده. فالمسيحية إذاً لم تهذّب الغرب رغم أنها قادرة على تهذيب النفس الإنسانية. لقد كان العرب قبل الإسلام مجتمع قيم

وعدل وقال فيهم الرسول الكريم: " إنما بعثت لأتمم فيكم مكارم الأخلاق" ولم يكن الغرب كالعرب ولن يصبح بمقامهم إلا إذا اعتنق الإسلام، فالإسلام وحده هو الحلّ الوحيد للمشكلة الغربية التي لم تجد حلاً طوال آلاف السنين.

المسيحية لم تهذّب الغرب لأن الغرب لم يحمل المسيحية بصفتها دين حياة وتهذيب وبصفتها عقيدة أولى للفرد تسيّر أخلاقه وقيمه وأعماله وتعاملاته كلّها، بل اعتمدها كنظام إضافي وشكلي وجمالي وتزييني لحياة الفرد.

الغرب يستغل المسيحية

المسيحية ليست هوية الغرب، وليس الغرب فضاءً مسيحياً كما يدّعي، أما السؤال هل الغرب مسيحي أم لا؟ فالجواب عليه ليس بالأمر البسيط ولا يمكن الجزم به بسهولة، ورغم ذلك يحق لنا أن نطرح هذا السؤال وأن نشكك بمسيحية الغرب.

فالحملات الصليبية التي غزت بلداننا باسم المسيحية قاتلت الآشورية والكلدانية المسيحيتين، وقاتلت المسيحية العربية بشكل عام. والصهيونية الغربية التي هي ابنة الغرب الذي يدّعي المسيحية والتي هي محسوبة كلياً على الغرب، ونتاج غربي تام. تلك الصهيونية تعادي المسيحية وتمارس في فلسطين إبادة للعرب مسلمين ومسيحيين، وقد طردت الكثير من المسيحيين من بيوتهم.

يستغلّ الغرب المسيحية منذ أن اعتنقها الرومان وجعلوها دين الدولة الرومانية. ومنذ القرن العاشر تقريباً، بدأ الغرب يستغلّ المسيحية في مجابهته للمسلمين الذين تمكنوا من غزو أوروبا، وفي القرون اللاحقة مورس استعباد وموورست إبادة للمسلمين في الغرب تحت راية المسيحية الصليبية، رغم أن المسيحية كديانة لا ترخص للغرب ارتكاب تلك الجرائم ضد مؤمنين مسلمين. وفي العصور التالية واجه الغرب الخلافة العثمانية التي كانت تمثّل المسلمين مستغلاً راية المسيحية أيضاً.

وفي أيامنا هذه تصدر من جهة الغرب تصريحات عدائية للإسلام شبه يومية ويحمّلها المفترون هوية مسيحية كحجة واستغلال وتبرير للعدوان. وكثيراً ما يدّعي الغربيون بأنهم يسعون لإنقاذ المسيحية العربية من (اضطهاد المسلمين) على حدّ تعبيرهم. ويبوح الكثيرون بأن غزو العراق والاعتداء على المنطقة العربية يأتي ضمن هذا السياق. فيما المسيحية العربية آمنة في ديارها لا تطالب الغرب بأية حماية. بل في العراق كانت

المسيحية العراقية آمنة مطمئنة وتعيش في سلام وأمن إلى أن جاء الغرب نفسه وصنع أحداثاً وأجواء تهدد وجودها.

فقد حافظ المسلمون على وجود الكيان المسيحي العراقي طوال القرون السابقة كلها، فيما جاء الغربيون إلى العراق ونتج عن عدوانهم هجرة وربما محو المسيحية العراقية من موطنها العراقي القديم.

وتعمل الفاتيكان أيضاً على استغلال المسيحية وتجعلها مسيّسة لتخدم قضايا سياسات حكومات الغرب وخداع المسيحيين الغربيين، والتصريحات الكثيرة التي تصدر عن الفاتيكان تأتي على الدوام ضمن هذا السياق: ونذكر منها: أن الفاتيكان يعارض تحوّل الثقافة الغربية إلى ثقافة إسلامية، وقولهم أن أوروبا فضاء إسلامي، وتصريحات البابا المتتالية التي أساءت للإسلام وللمسلمين.

فالغرب يستغلّ الفاتيكان باعتبارها رمز وممثل للمسيحية والفاتيكان تستغل المسيحية كديانة سماوية وتجعلها تلبي سياسات الغرب العدوانية.

ثمّ ما معنى أن يكون مركز الفاتيكان في أوروبا؟ يستطيع الغرب أن ينقلها إلى أرض فلسطين مهد المسيحية، ويستطيع أن يضغط على الصهاينة اليوم ويجبرهم على قبول مركز الفاتيكان المسيحي الحر. لكن ولأنّ الغرب يصرّ على الضغط على القرار المسيحي وتسييسه، لذلك فهو يبقي عليها في أوروبا.

لم يحدث أن حاول المسلمون أو العرب استغلال المسيحية لأغراض التوسع أو الهيمنة أو الاستبداد مثلما يفعل الغرب.

الغرب بطبيعته وتربيته لا يعظّم الأديان وما يتعلّق بها، على عكس العربي (مسيحي ومسلم) الذي يأخذ بالآية القرآنية الكريمة:(**ومن يعظّم شعائر الله**) (سورة الحج 32).

الغرب ليس أميناً على المسيحية

الغرب لم يكن في أي يوم من الأيام أميناً على المسيحية، لأنه لم يعتنق المسيحية أصلاً. فالأمناء على الديانة المسيحية والمحافظون عليها هم المسيحيون العرب المحافظون، ومن بحكمهم.

فقد ظلّت المسيحية في الغرب وسيلة يستخدمها الحكّام والسياسيون لتحقيق أغراضهم وتمكين خططهم. فإذا عدنا للبحث في أحداث تاريخية نكتشف الأدلة على

ما نقول:

1. الغرب استعماري وتوسعي والحملات الصليبية التي جرت تحت راية الصليب والمسيحية والتي كانت غزوات تسعى لتدمير الشرق المسلم ولإبادة أهله وإهلاكهم وإخضاعهم وظلمهم، تلك مغامرات لا تبيحها الديانة المسيحية، بل إنها أعمال لا تتسم بالإيمان على الإطلاق. وكانت تنبعث من أسس فكرية تتمثّل بالتوسع والاستعلاء الغربي والاعتقاد بالتفوق العرقي الأبيض وغير ذلك.
2. ظاهرة محاكم التفتيش في العصور الوسطى الغربية أعدمت العلم وأحرقت العالم غاليليو الذي قال بدوران الأرض ودوران الشمس. وأحرقت مسيحيين ومسلمين. ومارست الإبادة باسم الدين وبالتالي فقد كانت تمتلك رؤية ناقصة مغايرة للديانة السماوية المسيحية.
3. المسيحية التي أحرقت فلول المسلمين في غرناطة وقرطبة وسعت (لتطهير إسبانيا من الإسلام وفق المصطلح الغربي) وقامت بحرق مسيحيين اعتنقوا الإسلام في زمن الوجود الإسلامي الأندلسي، ويقال بأن أولئك الضحايا لم يكونوا جميعهم مسلمين بل اشتبه ببعضهم، ومن المعروف أيضاً بأن قسماً كبيراً منهم كان في الوقت ذاته موفقاً بين المسيحية والإسلام أي نصف مسيحي ونصف مسلم حسب عقيدته. وتلك الإبادة التي لن يغفرها تاريخ البشرية تعتبر خروج عن المسيحية السمحاء، وتثبت أيضاً بأن الغرب ليس أميناً على المسيحية.
4. ابتداءً من القرن السابع عشر بدأ الغرب يخلط مسيحيته بالفلسفة الأوروبية الحديثة. وبذلك كان يغيّر محتواها الديني وعقائدها.
5. ابتداءً من القرن التاسع عشر ذهب الغرب بخلط مسيحيته باليهودية، ثم بالصهيونية ثم بالعقائد والفلسفات الصهيونية الجديدة، كفلسفة الإبادة ونظريات سيادة الغربي على العالم وتحليل تدميره وإفنائه للشعوب الأخرى وعقيدة الحلول الإلهي بالبشر وبالطبيعة. وكان نيتشية أول المبشرين بتلك الفلسفة، وتبعته فلسفة يهودية وثنية تقول بأن الرب قد أبيد في محارق نازية مزعومة، وأن على اليهود أن يجمعوا ذراته التي تطايرت شرراً ورماداً، وبتأثر المسيحية بتلك الفلسفة خرجت عن مضامينها الدينية. وقد برر الغرب استعماره للدول العربية في القرن الماضي وفق أسس فلسفية سيادية وخرج عن مسيحيته.

ثم جاء العدوان الصهيوني والعدوان الغربي على البلدان الإسلامية وفق أسس تبيح إبادة الشعوب الأخرى وتسيّد الأوروبي على العالم.

6. الغرب المعاصر قام بصهينة المسيحية لدرجة جعلت الكثير من مسيحييه يعتنقون مبادئ صهيونية بحتة، لا هي يهودية ولا توراتية ولا مسيحية. وهذه المبادئ تدميرية وإبادية يعمل بموجبها الجنود الأمريكيون الذين يمارسون الإبادة في العراق.
7. يبرر الغرب اليوم غزواته للبلدان العربية والإسلامية على أسس مسيحية بينما المسيحية كدين لا تبيح له أعماله القذرة.
8. أصبح الغرب المسيحي يخيف مسلميه ويمارس ضدهم الإرهاب والاعتقال والعنصرية والتهديد بالإبادة. الأمر الذي جعلهم يعيشون في قلق ورعب دائم وانطواء على الذات. لكن المسيحية لا تبيح للغرب فعل ذلك.
9. تصدر من الغرب ممارسات طائفية ضد المسلمين جميعاً وأعمال تسيء للإسلام ولرسول الإسلام محمد عليه السلام. كالرسوم المضحكة والبيانات والتصريحات الكثيرة. وتلك ممارسات لا تبيحها المسيحية.
10. طوال العصور لم يقدّم الغرب الذي يدّعي المسيحية أية خدمات حقيقية للمسيحية العربية، لكنّه حاول استفزازها وفصلها عن هويتها وموطنها. فهو يغض الطرف عن آلام المسيحيين الفلسطينيين الذين يعانون من الاضطهاد والاحتلال. ولم يسع الغرب يوماً لتحرير كنيسة المهد بل إنه لم يعترف يوماً بحزنها وبمعاناتها. فمنذ أن وفدت الصهيونية إلى فلسطين لم تحتفل الكنائس القدسية في أي عام احتفالاً يليق بأهميتها وبمكانتها. وفي بعض السنوات كان الغزاة الصهاينة يمنعون كافة مظاهر الاحتفال في الأعياد المسيحية.
11. الغرب نفسه يمارس أعمال إهانة واستهزاء بالمسيحية وبرسولها عيسى عليه السلام. ويسمح بممارستها. فكثيرة هي الأعمال والتصريحات الغربية المسيئة للمسيحية، نذكر منها الفلم السينمائي المسمى pisser sur le christe والذي لا نجرؤ على ترجمة اسمه. ورفع دعاوى قضائية ضد المسيح نفسه. وأعمال فنية كثيرة تسيء لشخصية المسيح عليه السلام، منها رسوم كاريكاتورية كثيرة.
12. لقد استهان الغرب بالمسيحية لدرجة أن أصبح مباحاً لأي غربي بأن يصنع

عقيدة مسيحية جديدة ويستولي على كنائس لبدعته. ومن ذلك المغامر الألماني رون هيوبارد الذي صنع ديانة جديدة (السينتولوجيا) كما يقول واستولى على العديد من الكنائس وأصبح له حوالي مليون من الأتباع.

13. الفاتيكان مسيّر وليس محافظاً على المسيحية، فقد تجاوب البابا بينديكتوس مع ظاهرة معاداة المسلمين وهاجم الدين والعقيدة الإسلامية بوضوح 2007 حينما استشهد بنص من العصور الأوروبية الظلامية.
14. تناقش في الغرب مرات عديدة ظاهرة القساوسة المثليين، ويدافع قساوسة ورهبان عن المثليين ويطالبون بسنّ قوانين كنسية جديدة تبيح للقساوسة والرهبان بأن يكونوا مثليين. كما تنقل الأخبار أنّ قساوسة ارتكبوا المحرّمات باغتصابهم أطفالاً. وبقوا في مناصبهم الكنسية.
15. إن تربية الغربي وتاريخه ومجتمعه هي تربية بعيدة عن مفهوم الديانة السماوية. ورغم اعتناق الغربي للمسيحية كدين فهو بطبيعته أقل بكثير من العربي تعلّقاً بالسماء، وهو أيضاً بعيداً عن إدراك معنى العلاقة مع الله. تلك العلاقة هي صيغة إسلامية خالصة، ورغم أنها إسلامية فهي موجودة عند العربي مسلم ومسيحي. وهي أصبحت موروثاً ثقافياً واجتماعياً عند العرب والشرقيين.

ومن كلّ ما تقدم تظهر أهمية المسيحيين العرب المحافظين بصفتهم الأمناء على المسيحية، وأهمية دورهم المستقبلي الذي يجب أن يبدأ من الآن دون تأخّر، وهو إعادة الغرب إلى المسيحية السمحة التي من طبيعتها التحاور والتعايش مع المسلمين.

الغرب أكذوبة فلسفية

الغرب أكذوبة فلسفية، تزعم بأنها فكر بشري عالمي وتزعم بأنها ديانة مسيحية وتزعم بأنها خبرة إنسانية وبشرية عريقة، لكنه مجتمع القوة والثروة الغنية وتاريخ طويل من التطلع لأملاك الغير وأرض وثروة الآخر. الأكذوبة الغربية هي أكبر أكذوبة عرفتها البشرية، وتلك الأكذوبة التي مارسها الغرب كسلطة كنسية متطرفة وسلطة حاكمة مستبدة على أبناء الغرب كله. فقد تم خداع الغربي بمفاهيم تعادي الإسلام وتغيّر صورته الحقيقية. ومن أهم هذه المفاهيم التي استطاع الغرب أن يحافظ على ترسيخها طوال قرون خلت:

- تصوير الإسلام على أنه وثنية إلحادية كافرة، وهذا التصوير يحمل في

طياته تحذيراً شديداً للغربي يمنعه من اعتناق الإسلام.

- تصوير المسلمين على أنهم معادين للديانة المسيحية السماوية، وبالتالي فهم أعداء للغرب كله ولقيمه حسب تلك الأكذوبة.
- تصوير العرب والمسلمين على أنهم يعملون باستمرار على العودة للغرب والسيطرة عليه وعلى أنهم إن استطاعوا ذلك فسوف يذبحون أبناء الغرب ويستعبدونهم وبالتالي فقد تم إقناع الغربي بضرورة هيمنة الغرب على الدول الإسلامية وشعوبها، وبضرورة أن ينهب الغرب ثروات هذه الشعوب وخيرات بلدانهم.
- وفي سياق تلك الأكذوبة تم سحق مسلمي إسبانيا بعد سقوط الخلافة الإسلامية فيها. وجرى تحذير الأوروبيين من اعتناق الإسلام، واتجهت الحملات الصليبية نحو البلدان الإسلامية، وتبعها تقاسم الوطن العربي وسيطرة الاستعمار الغربي عليه، ثمّ تنصيب صهاينة أوروبيين في فلسطين للحفاظ النفوذ الغربي الدائم والمستمر على البلدان الإسلامية. ثمّ عاد التدخل الغربي بقوة ليمارس إبادة حقيقية للمسلمين في فلسطين والعراق وأفغانستان وفي الصومال، وهو يسعى لغزو دول أخرى. هذا التدخل الغربي في شؤون المسلمين يأتي في سياق الأكذوبة الغربية التي تعادي الإسلام ويرسّخ عند الغربي نفسه تلك الأكذوبة العدائية. ويحذّره في الوقت نفسه من مناصرة المسلمين أو من اعتناق الإسلام، فالصورة السائدة المفروضة هناك والمطلوب اتبّاعها هي صورة العدائية للإسلام وواجب الغربي يتمثّل بأن يقاتل في جيوش الغرب فيقتل ويبيد المسلمين.

تلك الأكذوبة وفصولها لم تعد تنطلي على المواطن الغربي، فالانفتاح الإعلامي مكّن الغربي من التوصل إلى الحقيقة. وبفضل الحريات المعلنة في الغرب فقد أصبح تطور الغربي يعني تملّصه من فصول ذلك الانتماء الزائف وتلك الأكذوبة المغرضة المفروضة عليه بالقوة. وأصبحت حرية الأوروبي ترتبط حقيقة بتحرره من عناصر تلك الأكذوبة ومن هيمنة السلطات الكنسية والحكومية على عقله.

ثمّ أصبح تحرر الأوروبي يعني اعتناقه الإسلام. وهذا ما توصّل إليه الكثير من أبناء الغرب في السنوات الأخيرة.

الغرب يستهزئ بالمسيحية

الغربيون الحديثون هم أكثر شعوب العالم استهزاءً واستخفافاً بالدين وبالقيم الدينية، فالذي يصدر عنهم في هذا المجال لم تعرفه البشرية ولا الشعوب العالمية الأخرى على مرّ العصور. ويعود سبب ذلك إلى تماديهم في فهم الحرية الشخصية. إضافة لضغوط يهودية فكرية متعمدة عليهم غرض اليهود منها تشويه المسيحية.

ومظاهر الاستخفاف بالمسيحية كثيرة جداً في الغرب، منها تعيين رهبان وقساوسة شواذ جنسياً، وقيام الكنيسة بتثبيت عقود الزواج للمثليين، وظهور نتاجات كثيرة جداً تهزأ بالمسيحية وبالعقائد الدينية: كالروايات والمسرحيات واللوحات الفنية والأفلام السينمائية والرسوم الكاريكاتورية التي أدرجت في صحف غربية.

وتأتي تلك المظاهر النقدية من لبّ العقلية الغربية التي ظلّت على النقيض مع العقلية العربية والشرقية، فالعقلية العربية متعلقة في الدين بطبيعتها وبموروثاتها، بينما الغرب متعلق بالمادة وبعيد عن اللاهوت الديني بطبيعته وبتركيبه.

رفع دعوى قضائية ضدّ المسيح

القيم الغربية اللادينية تبيح كل المحرّمات الدينية، نتعرض هنا لبعض تصرفات غربية تبيحها الحكومات والأنظمة والقوانين والقيم الغربية الشعبية. وكلها تستهزئ بالمسيحية وبالمسيح، وتثبت بأنّ الغرب قد فشل في زعمه بأنه الحارس الوصي على المسيحية.

في إيطاليا نظرت محكمة بقضية في غاية الغرابة، رفعها ملحد إيطالي على قسيس بلدته يطالبه فيها بإثبات أن المسيح شخصية تاريخية. وظلّ يسعى لويغي كاشيوللي منذ سنوات لنقل النقاش حول أصل الديانة المسيحية إلى قاعات المحاكم، إلا أن القضاة في بلدة فيتربو قرب روما طالما رفضوا الدعوى لعدم الاختصاص. وثم قضت محكمة استئناف بقبول الدعوى. ويملك كاشيوللي موقعاً على الإنترنت ويمطر الصحفيين برسائله الإلكترونية في محاولة لنشر وجهة نظره. وتستند الدعوى إلى مادة في القانون الجنائي الإيطالي تتعلق باستغفال العامة. وسيكون على القس أن يرد على الدعوى بمحاولة إثبات تاريخية شخصية المسيح

عيسى ابن مريم عليه السلام. ويقول كاشيوللي إنه اخذ هذه القضية إلى المحكمة لأنه يريد التوصل إلى حكم نهائي بشأن أصول المسيحية، إذ أن المناقشة مستمرة منذ آلاف السنين دون التوصل إلى نتيجة كما يقول. ويضيف كاشيوللي "إذا نجحت في الحصول على حكم من المحكمة بأن المسيح ليس شخصية تاريخية فستنتهي الديانة المسيحية. وسيضع ذلك نهاية لكل المناقشات".

اتّهام "الرب" بالإرهاب

رفع عضو مجلس شيوخ ولاية نبراسكا دعوى قضائية متهماً رب السماء بأنه السبب في كثير من القتل والرعب وأنه يهدد بالقيام بالمزيد.

السيناتور أرني تشامبرز رفع القضية أمام محكمة ضاحية دوغلاس، إذ إنه يمكن محاكمة المدعى عليه هناك باعتباره موجوداً في كل مكان كما يقول السيناتور.

وتقول صحيفة الدعوى أن المدعى عليه قام بتهديدات إرهابية ضد السيناتور ومواطني دائرته الانتخابية وأشاع بينهم الخوف، وتسبب في "مقتل وتدمير وإرهاب الملايين من سكان الأرض" في إشارة إلى الكوارث الطبيعية التي يشهدها العالم.

هذه الدعوة التي تسلمتها محكمة أمريكية تدلّ على أن الغرب ليس أميناً على الأديان ولا على المسيحية التي يتبناها ويدعي بأنه حارسها والمقاتل باسمها.

تهويد الغرب وتنصير اليهودية

تحدث توينبي بوضوح عن تهويد الغرب، لكنه توصل إلى اكتشافه هذا بإجراء مقارنة تفصيلية بين عقائد اليهود المنتشرة في الغرب وبين عقائد المسيحيين الغربيين. أي أنه وقع في مأزق الدائرة الثقافية الغربية ونسي أن يتطلع إلى المسيحية العربية وإلى عقائدها كما فاته أن يعود إلى التاريخ الروماني ليكتشف بأن المسيحية دخلت إلى أوروبا متهودة خالصة وعن طريق الحاخامات اليهود أنفسهم. أي أن توينبي لم يستطع أن يتملص من إطار العقائد اليهودية بل ظل يبحث داخلها كغيره من الأوروبيين.

يبين أرنولد توينبي أن ثمة تماثلاً بنيوياً عميقاً بين البنية الأساسية لليهودية (الشعب المختار، والإله الغيور، والانغلاق، والرؤى الأخروية) وبين كثير من الظواهر الدينية والسياسية والاجتماعية في الحضارة الغربية.

ويرى توينبي أن خطيئة الغرب الكبرى هي عبادة الذات (توثين الذات). فالكنيسة المسيحية منغلقة على نفسها، غير متسامحة تستبعد الآخرين، وهي التي تحولت بمرور الوقت إلى القومية الضيقة كما حدث في إنجلترا وفرنسا وغيرهما من الدول. هذا على خلاف الدولة العثمانية، على سبيل المثال، حيث ضمت عدداً هائلاً من الجنسيات والأديان، وتمكنت من أن تخلق لهم إطاراً يتعايشون داخله في سلام لعدة قرون. كما أن الحضارة الغربية، بعد أن أدارت ظهرها للإله الواحد المتسامي، استسلمت تماماً لإله المال . وكرست كل قواها لتحسين وسائل تراكم الثروة والوصول إلى أعلى درجات الكفاية العقلانية النفعية في الغرب الرأسمالي. أما في الغرب الشيوعي، فإن توينبي يرى أن الشيوعية والاشتراكية نسخة من الأفكار الأخروية الرؤياوية (الإسكاتولوجية والأبوكاليبسية) اليهودية. لكن الرؤية الأخروية الاشتراكية ستتحقق عن طريق تفجرات اجتماعية وثورية لا عن طريق تدخُّل الإله كما هو الحال في الرؤية اليهودية التقليدية .

ويرى توينبي أن الغرب قد تطوَّر بهذا الشكل بسبب العلاقة الوطيدة بينه وبين اليهودية. بل إنه، أكثر من ذلك، يرى أن الغرب ككل قد تم تهويده بالتدريج. ومعنى هذا أنه تبنَّى الرؤية اليهودية للكون.

ويرى توينبي أن الفكرة اليهودية الخاصة بالشعب المختار من أهم المؤثرات في الحضارة الغربية. فالمجتمع العبراني القديم كان منغلقاً هامشياً داخل الحضارة السريانية الأوسع. وقد أصبح يهوه الغيور إله هذا المجتمع. وبسبب الانغلاق القَبَلي لهذه الحضارة على نفسها، أخفقت اليهودية في أن تنتهز الفرصة التي سنحت لها بظهور المسيحية حتى تتحول إلى ديانة عالمية. ولكن، بدلاً من ذلك، وقع التمرد اليهودي ضد الرومان. وعندما أُخمد هذا التمرد، انتهى دور اليهودية تماماً وأصبحت حفرية جامدة ميتة. وقد كانت استجابة اليهود الوحيدة لتحدي النفي والاضطهاد هو الإبقاء على الانغلاق وعلى الإطار الشعائري المركب الذي يكرسه.

تهويد المسيحية ينفي هويتها

الغزو اليهودي للمسيحية جاء على مرحلتين اثنتين رئيسيتين كان أولها تهويد

المسيحية الذي بدأ منذ أن تعرف الرومان على المسيحية فأخذوها متهودة من اليوم الأول لاعتناقهم لها. ومنذ القرن الثالث للميلاد وقف المسيحيون في البلدان العربية ضد موجة التهويد تلك. فحدثت الانقسامات المسيحية المتتالية وحافظت الكنائس الشرقية على عقائدها وطقوسها.

وتبع ذلك محاولة صهينة المسيحية. وحدث ذلك منذ ظهور الحركة الصهيونية العالمية على يد هيرتزيل. وتكاثفت جهود صهينة المسيحية بعد قيام ما يسمى بدولة إسرائيل. واستفادت إسرائيل في كسب تحالف الغرب معها وفي الدعم الكبير الذي يقدم إليها بفضل هذا التحالف.

وقد نجح اليهود في كلا المرحلتين بالتأثير على المسيحية الغربية، لكن هذا النجاح لن يستمر ولا بد له من الزوال.

رغم المحاولات الكثيرة والضغوطات القوية لم يستطع الغرب أن يؤثّر على المسيحية العربية، ولا أن يغزوها بالفكر الصهيوني. فقد استطاعت المسيحية العربية ومن في حكمها الصمود ضد محاولات الصهينة رغم الضغوطات والإغراءات التي يفرضها الغرب.

صهينة المسيحية ظاهرة أضرّت بالديانة المسيحية وأبعدتها عن الدين المسيحي، وأفرزت ديانة جديدة لا علاقة لها البتة بالديانة المسيحية ولا حتى باليهودية. فقسم كبير من اليهود ينتقدون الصهيونية المسيحية بشدة ويحاربونها بقوة. لقد بدأت ظاهرة تهويد المسيحية مع مارتين لوثر، وكانت تلك المشاريع تقتصر طوال قرون على الرهبان والقديسين والحاخامات، ثم بدأ يتناولها المفكرون والمثقفون، ثم اختص بها بعض الساسة بوضوح، واليوم أصبح بمقدور شخص عادي في الغرب أن يصنع نظريات وعبادات وطقوس دينية صهيومسيحية. وفي ظاهرة معسكرات الرب التي رأيناها في الولايات المتحدة والتي يدعمها الرئيس بوش الصغير بشكل علني ومباشر رأينا امرأة (منغولية) يقال بأنها قديسة تبادر كما يحلو لها وكما تتطلبه المناسبة بطرح أفكار وعبادات وطقوس. وتلزم تلامذتها بالإيمان بتلك الآراء وتقول لهم بأنها دينية. وهي تبتدع كما يحلو لها وتخلط (الحابل بالنابل) وتقول هذا دين.

وأغرب ما في الأمر بأن لجماعتها أتباعاً ومؤمنين وإذاعة خاصة وإعلام وكتب وصحف ونشرات. وعندما يطّلع القارئ على أفعالهم سيكتشف بأنهم يلعبون بفكر

العقيدة والدين كما يلعب المهووسون بألاعيب الفيديو. هذا الخلط الغبي الذي أريد منه خدمة الصهيونية سيؤذي الغرب كله. فالفرد الذي يتعلّم مبادئ كاذبة سيتحول ضدّ معلمه حين يكتشف الأكذوبة. وقد يتحول إلى الإيمان الحقيقي وقد يتحول إلى الإسلام ويصبح عدواً لدوداً للصهيونية.

وهذا الخلط والخبص في صناعة دين وعقائد وطقوس يستوجب تدخلاً عربياً إسلامياً مسيحياً بهدف صيانة العقيدة السماوية والحفاظ عليها من لعب الأغبياء والمتخلفين من أبناء الغرب. فالحالة الراهنة تتطلب هذا التدخل، وحرصنا على الدين يتطلبه أيضاً. والغرب بحاجة حقيقية لتدخلنا الفوري ولحماية فكره الديني.

ولعلّ من مبررات تدخلنا ومن الأدلة والبراهين التي تجعلنا أهلاً للتدخل ولصيانة المسيحية الغربية ذلك أنّ فينا مسيحيين مؤمنين ومحافظين وحريصين على المسيحية. ولذلك لابد لنا جميعاً من تقوية وتحفيز وتفعيل دور رجال الدين المسيحيين العرب، فمنهم المطارنة المشاهير في لبنان وسوريا وفلسطين ومصر. وإن تفعيل دور هؤلاء يساهم في تفعيل دور العرب والمسلمين عموماً على الصعيد العالمي.

أما نظرة المتشددين الإسلامويين لهم ومحاولة تحييدهم بل وارتكاب أعمال إرهابية ضدهم فذلك من أخطر ما تواجهه الأمة العربية والإسلامية، وهو تدمير للجسد الوطني كله.

البروتستانتية والصهيونية المسيحية

الصهيونية المسيحية هي الدعم المسيحي للفكرة الصهيونية، وهي حركة مسيحية قومية تقول عن نفسها إنها تعمل من أجل عودة الشعب اليهودي إلى فلسطين وسيادة اليهود على الأرض المقدسة. ويعتبر الصهيونيون المسيحيون أنفسهم مدافعين عن الشعب اليهودي خاصة دولة إسرائيل، ويتضمن هذا الدعم معارضة وفضح كل من ينتقد أو يعادي الدولة العبرية.

تقوم فلسفة الصهيونية المسيحية على نظرية الهلاك الحتمي لليهود. وهناك الكثير من الدراسات اللاهوتية في هذا المجال خلاصتها أن هلاك يهود الأرض قدر محتوم وضرورة للخلاص من "إرث الدم" الذي حمله اليهود على أكتافهم بعدما صلبوا المسيح وهم سيتحولون إلى المسيحية بعد عودته ولن يبقى شيء اسمه اليهودية.

ومارتن لوثر عمل على تهويد المسيحية عندما أصر على اعتماد التوراة العبرانية بدلاً عن كتاب "العهد الجديد". وقد قام عدد من رجال الدين البروتستانت مثل القس الإنكليزي جون نلسون داربي بإعادة قراءة العقائد المسيحية المتعلقة باليهود، ومنحهم مكانة متميزة حتى أصبحت الكنيسة البروتستانتية هي حاملة لواء الصهيونية المسيحية أينما حلت.

وقد حصل انشقاق داخل الكنيسة البروتستانتية نفسها بسبب اليهود. فبينما أعرب بعض البروتستانت الإنجليز عن اعتقادهم بأن اليهود سيعتنقون المسيحية قبل أن تقوم دولتهم في فلسطين، ذهب بعض البروتستانت الأمريكيين إلى أن اليهود لن يدخلوا في المسيحية حتى لو قامت إسرائيل وأن عودة المسيح هي الشرط النهائي لخلاصهم وتوبتهم ودخولهم في الدين الذي جاء فيهم أصلاً. وقد تزعم القس نلسون داربي هذا الفريق وينظر إليه على أنه الأب الروحي للمسيحية الصهيونية قبل أن يعمل العشرات من القساوسة على نشر نظريته تلك. ونشر وليم باكستون الذي كان من أشد المتحمسين الأمريكيين لأطروحة داربي كتاب "المسيح آت" سنة 1887 وترجم الكتاب إلى عشرات اللغات وركز فيه على حق اليهود التوراتي في فلسطين. وبلاكستون كان وراء جمع 413 توقيعاً من شخصيات مرموقة مسيحية ويهودية طالبت بمنح فلسطين لليهود وتم تسليم عريضة التوقيعات للرئيس الأمريكي آنذاك بنيامين هاريسون. أما القس سايروس سكوفيلد فيعتبر من أكثر المسيحيين الصهيونيين تشدداً وقام بوضع إنجيل سماه "إنجيل سكوفيلد المرجعي" نشره سنة 1917 وينظر إليه اليوم على أنه الحجر الأساس في فكر المسيحية الأصولية المعاصرة.

الحركات الصهيونية المسيحية

كان لليهود المهاجرين من إسبانيا إلى أوروبا وبخاصة فرنسا وهولندا أثرهم البالغ في تسرب الأفكار اليهودية إلى النصرانية من خلال حركة الإصلاح، وبخاصة الاعتقاد بأن اليهود شعب الله المختار، وأنهم الأمة المفضلة، وكذلك أحقيتهم في ميراث الأرض المباركة. وفي عام 1523م أصدر مارتن لوثر كتاب عيسى وُلِد يهوديًّا متأثراً فيه بالأفكار الصهيونية.وفي عام 1544م انتبه مارتين لوثر إلى الخطر اليهودي وأصدر

كتاباً ينتقد فيه التدخل اليهودي في الكنيسة والمسيحية ويحذر من أكاذيبهم. وكانت هزيمة القوات الكاثوليكية وقيام جمهورية هولندا على أساس المبادئ البروتستانتية الكالفينية عام 1609م بمثابة انطلاقة للحركة الصهيونية المسيحية في أوروبا، مما ساعد على ظهور جمعيات وكنائس وأحزاب سياسية عملت جميعاً على مساعدة اليهود في إقامة وطن قومي لهم في فلسطين. ومن أبرز هذه الحركات: الحركة البيوريتانية التطهيرية التي تأسست على المبادئ الكالفينية بزعامة السياسي البريطاني أوليفر كروميل 1649-1659م وفي عام 1807م أُنشئت في إنجلترا جمعية لندن لتعزيز اليهودية بين النصارى.

وقد أطلق أنطوني إشلي أحد كبار زعمائها شعار: "وطن بلا شعب لشعب بلا وطن" وانتقلت الصهيونية المسيحية إلى أمريكا من خلال الهجرات المبكرة لأنصارها نتيجة للاضطهاد الكاثوليكي، وقد استطاعت تأسيس عدة كنائس هناك من أشهرها الكنيسة المورمونية. ويعتبر سايسروس سكلوفليد 1843م الأب اللاهوتي للصهيونية المسيحية في أمريكا.وفي العصر الحديث تعتبر الطائفة التدبيرية التي يبلغ عدد أتباعها 40 مليون نسمة تقريباً والمعروفة باسم الأنجلو ساكسون، البروتستانت البيض من أكثر الطوائف مغالاة في تأييد الصهيونية، وفي التأثير على السياسة الأمريكية في العصر الحاضر. ومن أشهر رجالها اللاهوتيين: بيل جراهام، وجيري فولويل، جيمي سويجارت. ومن أبرز رجالها السياسيين الرئيس الأمريكي رونالد ريجان. والرئيس جورج بوش.

ومن داخل الكنيسة الإنجيلية في أمريكا وقف لهم بالمرصاد المجلس الوطني للكنائس المسيحية.

تحذير أخير للعالم

تحليل أسطوري للحدث الحاضر ونبوءة خرافية بمستقبل العالم تصبح ديانة يلتمّ حولها ملايين من أبناء الغرب. والنبوءة تلقى وللأسف آذاناً صاغية وفيرة في الغرب كله. فالمسيحية الغربية وخاصة في أمريكا ابتليت باعتناق الخرافة والأسطورة، خاصة وقد تم ربطهما بمبادئ العقيدتين الدينيتين المسيحية واليهودية، كما ينقل عن كبار السياسيين اهتمامهم بهما. ومن خطابات بوش الصغير ودفاعه المستميت عن الصهيونية يلاحظ اعتماده الواضح على الخرافة والأسطورة ذات الطابع الصهيوني.

فمن داخل المسيحية الصهيونية اشتهر أخيراً القس جون هاجي وصعد نجمه بسرعة كبيرة، بفضل أفكاره التدميرية الهستيرية التي أعلنها، فقد أصدر في كانون الثاني 2006 كتاباً خطيراً جديداً بعنوان: **العد التنازلي لأورشليم: تحذير للعالم.. الفرصة الأخيرة للسلام"**، وبسرعة مذهلة أصبح في ثلاثة أشهر فقط، أكثر الكتب تداولاً وبيعاً في الأسواق الكبرى بالولايات المتحدة الأمريكية. ويرى الكتاب أن حكّام إيران متزمتون يسعون إلى محو إسرائيل من الخريطة بإلقاء قنبلة نووية على القدس. وأنه بعد اجتياح إسرائيل على يد المسلمين والروس، ستقوم حرب ثانية للسيطرة على إسرائيل، وستشتعل الحرب بين الولايات المتحدة من جهة، والصين والاتحاد الأوروبي من جهة ثانية.

وفي هذه اللحظة سيظهر المسيح الدجال في شخص رئيس الاتحاد الأوروبي. وفي النهاية ستضع الحرب النووية الرهيبة حداً للنزال، وستدور المعركة الحاسمة في ميجيدو (هارمجدون). وسيصبح بإمكان المسيح المبجل أن ينزل إلى الأرض ليجزي الذين آمنوا به وانتظروا رجوعه. ومن حسن حظه أن الجيش الإسرائيلي والبنتاغون يمكنهما ترجيح الكفة لصالحه بتدخل وقائي، بما فيه استعمال قنابل نووية جديدة وتكتيكية. ولهذا يجب خوض الحرب من الآن دون انتظار.

حركة تقديس الحرب

تبرز أهمية المسيحية العربية وصمودها في وجه الأخطار والخرافات الدينية القادمة من الغرب. ويصبح بقاؤها شاهداً عالمياً على إفك الصهيونية. وضرورة حتمية تقتضيها وجود التقلبات الدينية الغربية. فمنذ العام 2005 عقدت الصهيونية العالمية مع البنتاغون اتفاقاً على تأسيس حركة « **المسيحيون المتحدون من أجل إسرائيل** ». وتهدف هذه الحركة إلى تعبئة الرأي العام الأمريكي لمساندة إسرائيل والأمريكيين في حربهما ضد العرب والمسلمين. بل وجعل تلك الحرب مقدسة وواجباً دينياً مسيحياً.

وهذا يزيد في تأجيج النار في اليمين الديني الأمريكي، الذي كان من ضمن مشروعه محاولته مسابقة الإسلام واحتكار المسيحية والدفاع عن "الحرية الدينية"، وتنصيب رؤساء موالين له في كل قارات الكرة الأرضية. وكسب السند الشعبي العام بالولايات المتحدة الأمريكية في الحرب ضد لبنان، ثم سوريا وإيران، فقد أسس

البنتاغون الأمريكي والجيش الإسرائيلي بنية للتأطير والتكوين، منذ نهاية سنة 2005، لتعبئة خمسين مليوناً من الإنجيليين الأمريكيين. وتركز المحور العام لهذه العملية على إدماج زعماء الإنجيليين في مؤسسة إيديولوجية وحيدة: "المسيحيون المتحدون من أجل إسرائيل". ولا ترمي هذه المنظمة الجديدة إلى أن تكون بديلاً للمنظمة الشهيرة "إيباك" العاملة كجماعة ضغط سياسية (لوبي) في الأوساط الحاكمة، لكن مهمتها هي ترويج العقيدة الصهيونية في الكنائس الإنجيلية وخارجها حتى يصير دعم العمليات العسكرية العدوانية الإسرائيلية في نظر أغلبية الأمريكيين بمثابة الواجب الديني المسيحي. وبهذه الطرق القذرة تقوم الصهيونية بتحويل الإنجيلية المسيحية إلى حركة صهيونية تحمل عقائد يهودية وتدافع عن اليهودية الصهيونية. وإن هذا إلاّ استخفاف بالديانة المسيحية نفسها وتسخيرها في خدمة اليهودية.

عقيدة الإنجيلية الصهيونية الجديدة

لعلّ من أخطر العقائد التي تنشرها الصهيونية طوال التاريخ اليهودي عقيدة جديدة تخلط مجموعة من المبادئ والقيم وتصل في نهايتها الى أن يسوع المسيح سيظهر في صهيون بعد أن يباد المسلمون جميعاً باسم الرب المسيحي اليهودي. ويؤمن بهذه العقيدة حسب بعض الإحصائيات 25 ٪ من الأمريكيين. ويعتقد هؤلاء بأنهم يولدون من جديد حين اعتناقهم للعقيدة الجديدة. وجميعهم من الإنجيليين. وإنّ نسبة 75 ٪ من الأولاد الذين يدرسون في البيوت في الولايات المتحدة هم من الإنجيليين. وهذه العقيدة موجهة بالدرجة الأولى لهم. وتخصص لهم إذاعات محلية وقنوات تلفزيونية ومواقع إلكترونية.

وضمن برامج تدريبية تجري في (معسكرات الرب) يجري تعليم الناشئين على القتل والتكسير والتدمير والإبادة. ومن بين تلك التمارين يحمل التلاميذ مطارق مرعبة ويقومون بتكسير فناجين وكؤوس وسط أجواء مرعبة وموسيقا خاصة بتلك التمارين. وبهذه الطرق يجري تحضير الناشئين ليمارسوا في المستقبل الإبادة والقتل والتدمير ضد العدو الذي يقال لهم بأنه (المسلم والعربي)

ونذكر هنا بعضاً من تعاليم هذه العقيدة:

- تركّز هذه الديانة الجديدة على العداء للمسلمين جميعاً. وتعلّم أتباعها كره

obeikandl.com

الإسلام والمسلمين كرهاً تاماً.

- تجمع هذه العقيدة الأفراد المسيحيين في الولايات المتحدة وبسبب جهلهم بالمسيحية نفسها فهي تثقفهم بعقيدة ظاهرها ديني مسيحي وحقيقتها صهيومسيحية بعيدة عن كافة القيم الدينية.
- من ضمن العقائد بعض المفردات والمظاهر الإسلامية التي استقاها أولئك المبدعون الصهاينة من التصوف الإسلامي وغيره.
- يعتقدون بالحلول الإلهي فيهم.
- يدعون لشنّ حرب مقدسة مستمرة ضد المسلمين أينما وجدوا.
- يهاجمون كلّ الكنائس المسيحية الأخرى ويعتبرونها كافرة.
- تدعو المعلمة تلامذتها إلى تغيير العالم كله، وتعتبر العالم كافراً.
- ومن بين التعاليم الرئيسية لهذه العقيدة:

" تأسست أمتنا على القيم اليهودية المسيحية – في العالم نوعان من البشر نوع يحبون المسيح، وآخرون يكرهونه وهم المسلمون. – لنشنّ حرباً مقدسة باسم الله على أولئك المسلمين – الشيطان رمز الخطيئة التي تريد تدميركم – السحرة أعداء الله – تمجيد الصهيونية وأمريكا ويسوع هي أركان الإيمان – الله يصون الآلات الموسيقية والأجهزة الكهربائية وأجهزة الصوت وأجهزة الحواسب لأنها داخل المدرسة الدينية.

تتحدث الأستاذة في المعهد الديني السيدة (بيكي فيشر) للإعلام وتقول: " نحن نؤمن بقضية المسيح مثلما يؤمن أولئك بقضية الإسلام، والفضل في تعليم ونشر هذه العقيدة يعود للرئيس جورج بوش الابن وهو رجل مؤمن. عند المسلمين أفراد انتحاريون يتم تعليمهم وتدريبهم ، ونرى ذلك في مواقع الإنترنت . ونحن نعلّم أبناء أمريكا أن يستعيدوا الأرض من المسلمين." وهي بذلك تؤيد الاحتلال الأمريكي للعراق وتعتبره جزءاً من الحرب الدينية التي تهدف لاستعادة الأرض المقدسة من المسلمين.

ومن أغرب ما نراه في هذه العقيدة والطقوس أنها أخذت عن الصوفية الإسلامية طرقاً وأشكالاً تظنّ بأنها عناصر دينية إسلامية، ومن بين هذه الأشكال: اعتقادهم بأنهم يناجون الله وبأن الله يكلّمهم ويحدّثهم ويوحي لهم،

فأصبح كل صبي دخل هذا المعسكر الديني منذ الدقيقة الأولى مناجياً لله. وسامعاً لخطاب الله. ويمارس هؤلاء رقصاً دينياً على إيقاع البوب وغيره أثناء الصلاة والمناجاة. ويبكون من انفعالاتهم ورعبهم وخوفهم بإيحاء من المرشد الديني. ورغم ذلك فإنّ هذه المدارس الصهيومسيحية أقيمت لتحارب المسلمين أينما وجدوا. إذ تتطرق المرشدة الدينية (والتي لا يدّل وجهها على أية علامات دينية أو أمارات تقوى بل يحمل أمارات الكره والحقد والسفك والذبح) تتطرق باستمرار إلى الحديث عن المسلمين وتقارن كلّ حالة في مدرستها بأمور عند المسلمين. وتقول لتلامذتها في الدروس: إنّ المسلمين يصومون رمضان ويجبرون أولادهم على الصوم ، أولادهم صغار مثلكم. عليكم أن تتعلموا شظف العيش مثلهم. علينا أن نغير هذا العالم الذي يتحكم به المسلمون. وتعلم تلامذتها بوضوح واجب إبادة الشعوب العربية والإسلامية واحتلال بلدانها بدعوة أنهم أحق بامتلاكها لأنها أرض الميعاد المقدسة فتقول الكاهنة بيكي لتلامذتها (لنستعيد منهم الأرض المقدسة). وبالطبع ستفشل كل تلك الادعاءات والمساعي وسيرفضها الأمريكيون والمسيحيون بل وقسم من اليهود أنفسهم. وثمة أصوات غربية كثيرة نسمعها تعادي هذه الأنواع من التطرف.

سكوت الغرب على صهينة المسيحية

نتساءل بدهشة عن سبب السكوت العالمي والمسيحي الغربي والبابوي على ظاهرة صهينة المسيحية. والمسيحيون العرب في الحقيقة غير راضين على الإطلاق عن تلك الظاهرة الوثنية. وهم في نفس الوقت عاجزون عن وضع حدّ لها أو إيقافها. فلماذا لا يساهم الإعلام العربي والإسلامي الخاص والحكومي في محاربة صهينة المسيحية رغم اقتناعنا جميعاً بأخطارها الكبيرة؟

المشايخ والأساتذة المسيحيون يحاربون تلك الظاهرة بإمكانياتهم المحدودة. ودليلهم على ذلك بأن صهينة المسيحية ليس لها مكان ولن يكون لها مكان في البلدان العربية. وهم محقّون فيما يقولون وهذا يوجب علينا جميعاً أن نتحالف ونوحّد جهودنا في سبيل محاربة صهينة المسيحية على الصعيد العالمي. وعلى الدوام نكتشف بأننا ملزمون كمسلمين لأن ندعم المسيحية العربية ونعلي من أهميتها على الصعيدين المحلي والعالمي، فلا بدّ من دعم رجال الدين المسيحي ليكونوا سفراءنا في الغرب، وليشاركوا في مؤتمرات دينية ويلقون محاضرات وحوارات ويبيّنون لأبناء

الغرب المسيحي الديانة المسيحية البريئة من الصهينة والتهويد والعنصرية.

في الغرب لن نعثر على كيانين منفصلين ولا يمكن الفصل التام بين اليهودية والمسيحية، إذ أن هناك كيان واحد متلاحم ومتلاصق يحوي بداخله مسيحية ويهودية. وهذا التشكيل العقيدي لا يمكن فصل اليهودية عنه كما لا يمكن فصل المسيحية. في الغرب لا يمكن فهم المسيحية بدون اليهودية. فالمسيحية يتم شرح تعاليمها وشرائعها بواسطة العهد القديم الذي هو يهودي، أي بواسطة شروح وعقائد حاخامات اليهود أنفسهم. ومن هذه الثغرة دخل مارتن لوثر وقام بالتهويد التام للمسيحية، ومن هذه الثغرة يدخل الفك الغنوصي اليهودي إلى أغوار المسيحية. ومنها يتم الضغط السياسي الصهيوني على المسيحية الغربية وعلى البابوية والكنائس الغربية. وهذه الثغرة هي التي اكتشفها رئيس الأساقفة البريطانيين روان ويليامز وانتقد نفوذ اللاشريعة وطالب بإحلال شريعة لا مسيحية ولا يهودية بل إسلامية، لأنه مدرك بأن الإسلام يتفق مع مسيحية المرحلة الأولى التي دعا إليها السيد المسيح عليه السلام.

الأساطير الصهيونية الجديدة

منذ نشوء الحركة الصهيونية وهي تعتمد على الفكر الأسطوري وتحاول بثّه في المجتمعات العالمية. فالزعم بضرورة عودة اليهود إلى أرض فلسطين كان يقوم على مبدأ أسطوري يقول بأن عودة اليهود ومن ثم إبادتهم بالكامل سيمهد الطريق لعودة ظهور المسيح. ورغم زعم الغرب بإيمانه بالعلمانية المطلقة فقد تجاوب مع الأساطير الصهيونية آنذاك. ومنذ قيام دولة إسرائيل وهي تقوم بنشر الفكر الأسطوري في المجتمع العربي. ونلاحظ ذلك على كافة المستويات.

تسميم الفكر المسيحي بعقيدة الإبادة

إن الإبادة كعقيدة ومفهوم وواقع ديني وعقيدي كانت ماثلة في الذهن اليهودي منذ بداية القرن التاسع عشر على الأقل.

وإن نشر عقيدة الإبادة كمبدأ كان همّ الصهيونية. الأمر الذي اعتقدوا بأنه القادر على انتشال اليهود من حوثلتهم. ومن المقام الركامي الذي ظلّوا فيه طوال أربعة آلاف سنة. وعندما ظهر هتلر ساهم اليهود في توليد النزعة العرقية الألمانية، وتلك النزعة جعلته يخطط لتطهير العالم من الفساد، فكانت الحرب الجحيم.

فقد ظهرت في أوروبا نزعة إبادية عامة على أيدي مفكرين وفلاسفة يهود. وكانت تلك النزعة تحمل عقائد تدميرية ابادية تتفق مع تصور اليهود للكون والمجتمعات وتختلف مع التصور المسيحي المتسامح. وقد ساهمت الظروف العامة في نشر تلك الأفكار والتصورات وشيوعها في الغرب كله.

إبادة في سبيل الموز

تاريخ الغرب في جنوب أمريكا.. في جمهوريات الموز.. الانقلابات العسكرية الكثيرة التي دبرتها أمريكا في هذه الجمهوريات للسيطرة على محصول الموز. ففي سبيل الموز قمع الناس وفتحت أبواب السجون وأزهقت الأرواح.

هذا الموز الذي نستورده في العالم العربي، يأتينا وهو يحمل كتابة تقول إنه من كاليفورنيا، بينما هو لم يزرع في كاليفورنيا، بل هو مزروع في تشيلي، أو غواتيمالا.. وفيهما توجد شركة الفواكه الأمريكية المسيطرة على فاكهة الموز.

الموز في هذه الجمهوريات كالنفط لدينا. إنه محصول إستراتيجي . يؤخذ كل هذا المحصول الذي زرعه الفلاح الغواتيمالي، وينقل بالقطارات الى الموانئ، ومنه إلى كاليفورنيا، ويلصقون عليه عبارة: انتاج كاليفورنيا، ويصدّرونه الى العالم ويبيعونه بأغلى الاسعار.

وهكذا شأن كل المحاصيل والثروات الأخرى.

ففي العراق يجري القتل والتدمير والإبادة في سبيل الاستيلاء على نفطه وثرواته. حتى التمر العربي يخطط الغرب للاستيلاء عليه والتحكم بأسعاره.

إبادة الطبيعة

لقد مارس الرومان والإغريق إبادة للطبيعة في عصرهم، فلم يكن المحاربون

يرغبون بالعمل وبالتحصيل، بل كانت الفتوحات التي انطلقت شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً تأتي بالغنائم الكثيرة التي أغنت الروم والإغريق آنذاك. ولتلك الأسباب تحولت الأراضي الزراعية إلى مراع عبثية. وبالنتيجة تحولت روما إلى مدينة متطفلة عاشت على حساب كل الأقاليم المحتلة. ونفس الشيء يحدث في القرن العشرين ففي طور الخمول الأخلاقي والديني الغربي خان الناس الحقول الخصبة والمياه العذبة والغابات والبحار وطبقة الأوزون. فقد اختفت غابات واسعة كانت في إسبانيا وحلت محلها ناطحات سحاب.

واليوم تمتنع الولايات المتحدة عن تقليل تلويث الغلاف الأرضي بالكربون، ويكاد سياسيوها يكذبون العلماء وخبراء البيئة الذين دقوا ناقوس الخطر. وهذا الامتناع سيضر بالعالم كله وبالولايات المتحدة نفسها. ورغم ذلك تصرّ المستبدة على معاداة الحياة على هذه الأرض. تلك هي نتائج العقائد التي تورط الغرب فيها.

روان ويليامز : المسيحية لا تكفينا

ظهر روان ويليامز بشكل مفاجئ ليقول للغرب بأن مسيحيته ليست عقيدة صالحة للبشرية، ويؤكّد بأن الغرب بات بحاجة لاستعارة قوانين شرعية من الإسلام. فجأة يكتشف رئيس الأساقفة البريطاني بأن المسيحية وحدها لم تعد قادرة ولا كافية للتشريع للمواطنين الغربيين، ويعلن على الملأ عن حاجة الغرب لقوانين الشريعة الإسلامية. وهو بذلك يسقط المنظومة التشريعية الدينية التي تسود في الغرب وفق عقائد يهودية تحت اسم مسيحي.

يعترف كبير أساقفة كانتربري روان ويليامز بعظمة الشريعة الإسلامية وبعدل قواعدها وقوانينها ، بل وبحاجة الغرب لها. كل هذا يظهر في دعوته الواضحة للحكومة البريطانية بأن تأخذ قوانين شريعة إسلامية وتجعلها قوانين حكومية ثابتة.

نلمس في دعوته بأنه درس قسماً كبيراً من الفقه الإسلامي، وأنه اطلع على مضامين الإسلام وعرف فضله على البشرية كلها.

ودعوته هذه لا تحمل للغربيين مشروعاً جديداً عنهم كل الجدة. فالغرب

obeikandi.com

استمر في استعارة ما يناسبه وما يرغب به من الفقه الإسلامي منذ القرن السابع الميلادي، وتحديداً منذ بداية الفتوحات الإسلامية لبلدان الغرب. فقد اعتاد الغرب أن يقتدي بالدرجة الأولى بنتاج الفلاسفة والمفكرين الغربيين، وثم بالحكمة الدينية المسيحية التي تتأثر بدورها وتتبدل وفقاً لنتاج الفلاسفة الغربيين. فقد استطاع سيغموند فرويد أن يقنع الغرب كله بالإباحية الجنسية وما تلاها من المثلية والزواج المثلي الذي وافقت كثير من الكنائس الغربية عليه. أي أن نتاج فيلسوف تجريبي لم يتم تأكيد صحة أطروحاته ذلك النتاج فرض أخلاقاً طويلة الأمد على الغرب كله. ومع فكر نيتشه المادي والمركزي اعتنق الغرب مبدأ المركزية الغربية الذي مازال حتى يومنا هذا، وبتتابع المدارس الفكرية ظل الغرب يتخبط بالانزلاق فيها، فبظهور الوجودية مع سارتر أصبح الغرب كله تقريباً وجودياً. هذا من ناحية تأثر الغرب بالفكر والفلسفة، ونذكر بأن فلاسفة العصور الوسطى كلهم تقريباً استعاروا من الإسلام حكَماً وقواعد وضوابط وأخلاقيات وجعلوها داخل المنظومات الفلسفية التي عرضوها وحدث ذلك دون أن يعلنوا عن المصادر الإسلامية لتلك الفضائل فاكتفوا بوضعها مدّعين أحياناً بأنهم خالقيها ومبدعيها.

ونعثر على الأحكام الإسلامية في النتاجات الغربية المتنوعة (مسرح شيكسبير، روايات ومسرح وفكر فولتير، فلسفة روسو وغيره). ثم إن المسيحية كلها تأثّرت بالإسلام وبشرائعه. فمسيحيوا الشرق عاشوا مع الإسلام وفي كنفه وداخل منظومة عطاءاته ونعمه، ولذلك فهم مسلمون بفضل اعتناقهم للكمّ الكبير من العقائد والشرائع الإسلامية، وبنفس الوقت فهم مسيحيون لأنهم يعتقدون بالصليب المسيحي وبالثالوث. أما الغرب فقد تأثّرت مسيحيته بالإسلام بشكل مباشر منذ القرن السابع الميلادي وذلك بفضل الاحتكاك والتبادل المتعدد الأوجه بين الشعبين، ثم باقتباس المسيحية فكراً فلسفياً غربياً متأثراً بالإسلام.

واليوم لم يأت روان ويليامز بجديد عندما يدعو الغرب للاستعارة من الإسلام ومن شرائعه. فالإعلام الإسلامي بلغ ذروته منذ مطلع القرن الواحد والعشرين. إذ تواجد المسلمون بكثافة في كافة بلدان الغرب وأصبحوا دون أن يعوا مهمتهم العظيمة صورة إعلامية إسلامية حيّة نابضة في قلب المجتمعات الغربية. حتى

المتطرفين والمعتقلين منهم يؤدون ذلك الدور الإعلامي الكبير. فمنذ الهجوم على مركز التجارة العالمي انفلت مفتاح التحكم بالإسلام من أيدي المسلمين وأصبح هذا بين يدي البشرية كلها. وليس هذا خطراً على الإسلام بل هو لصالحه، فقد أخذ الإسلام صفة العالمية وأصبح موضوعاً يتداوله الجميع في أوروبا وأمريكا والصين واليابان بنفس المقدار وربما أكثر من تداوله عند المسلمين أنفسهم. ومن هنا جاءت الرسوم الكاريكاتورية التي تنتقد أعظم شخصيات الإسلام، ثم تتالت الأعمال الإنتقادية، ثم يعرض فلم ينتقد الإسلام في هولاندا. لقد أصبح الإسلام قضيتهم وشغلهم الشاغل وموضع نقاشهم وجدالهم واختلافهم. هذه المكانة التي وجد الإسلام فيها في هذا القرن جعلته موضع أخذ وردّ في الغرب وجعلت البعض ينتقده أو يوجه إليه الاتهامات وبنفس الوقت جعلت الآخرين يقبلون عليه ويحترمون شرائعه ويعتنقونه كدين، فيصبح انفلات الإسلام من أيدي المسلمين أمراً مقبولاً ويعود على الإسلام والمسلمين بالخير أيضاً. فالرسوم الكاريكاتورية ليست بموجب هذا التفسير سوى حلقة من حلقات النقاش الغربي للجانب الإسلامي الذي أصبح من أملاكهم هم. فهم ينتقدون ذلك الجانب الذي يخصّهم وهو الذي يرتبط بأعمال تطرف إسلامي داخل الغرب نفسه. وتصبح الرسوم الكاريكاتورية شأناً غربياً خاصاً لا علاقة لنا به نحن المسلمون غير الأوروبيين.

لحظة انفلات الإسلام من أيدينا كانت في العام 2001 عندما سقطت أبراج مركز التجارة العالمي. ففي تلك اللحظات تساءل العالم كله عن الإسلام وعن شرائعه، وفي الأيام التالية بيعت ملايين الكتب التي تتحدث عن الإسلام بل وخلت المكتبات الغربية من الكتب التي تصف الإسلام، أي أن الغرب كله قد اتجه للتعرف على الإسلام وجعله قضيته، وذلك التبني للقضية أفرز فيما بعد إقبالاً غربياً كثيفاً على اعتناق الإسلام ثم اعتراف روان ويليامز الصريح بضرورة أخذ الشرائع والأحكام عن الإسلام، وبعد تعرضه للانتقادات وقف بجرأة وأعلن عن ثبات موقفه وعن مواجهته لمنتقديه وتحمله لتبعيات تصريحه الذي اعتبر خطيراً في الغرب، وهذا ينبئ بأن ويليامز سيعلن في المرحلة التالية اعتناقه لدين الإسلام كما نعتقد. وعندئذ كيف نتصور مواقف أتباعه الذين يبلغ تعدادهم الحالي مئة مليون؟

روان ويليامز يدرك المأساة التي وصل إليها الغرب بعد تهويده وإخراجه عن العقائد الدينية، فقد تحدث الفيلسوف أرنولد وينبي عن ذلك وقال بوضوح: لقد تم تهويد الغرب بالكامل، ويدرك ويليامز اليوم عمق التخريفات الفلسفية التي آذت الضمير الغربي، ويدرك أيضاً بأن لا خروج للغرب من تلك المتاهات إلا بواسطة الإسلام. ثم إنه تخصص طوال عشرات السنين الماضية بتسخير المسيحية لصياغة الأخلاق الفردية والإجتماعية العامة في بريطانيا وعدد من الدول التي تتبع الكنيسة الأنكليكانية وبعد تلك التجربة المضنية توصل لنتيجة مفادها أن لا خلاص للغرب إلا بواسطة القوانين الشرعية الإسلامية أي بواسطة الإسلام نفسه.

قد يكون الدكتور ويليامز أهم حلقة تاريخية في التحول الأوروبي إلى الإسلام وقد تؤدي ثورته إلى تعجيل هذا التحول، وقد يصح لنا أن نطلق عليه منذ الآن اسم ابن لادن المسيحية الغربية.

ويذكر بأن تاريخ الدكتور ويليامز حافل بالثورية وبالميل لإعلان الحقيقة دون ممالأة أو مواربة أو عمالة، فقد اجتهد في محاولة طرد بعض الكنائس الأمريكية التي عيّنت أساقفة لها متهمين بالشذوذ وبالمثلية الجنسية. ثم إنه وخلافاً مع المركزية الصهيونية زار سورية مرتين والتقى بالرئيس السوري بشار وسمع منه بتفهم لمشكلة الصراع العربي الصهيوني، واطلع على طبيعة الحياة المتفاهمة بين المسيحيين والمسلمين في سورية، ففي السادس والعشرين من أيلول سبتمبر قام الدكتور روان ويليامز، رئيس أساقفة كونتربري للأنكليكان الكاثوليك بزيارة رسمية إلى سوريا، التقى فيها رئيس الجمهورية وعدد من رؤساء الطوائف المسيحية وعلماء الدين المسلمين ورجال دين من مذاهب عديدة. ورافقه في الزيارة عدداً من الأساقفة والكهنة.

كما قابله د. أحمد بدر الدين حسون (مفتي الجمهورية)، والدكتور زياد الأيوبي (وزير الأوقاف)، وأثناء تلك الزيارة تحدث صاحب الغبطة البطريرك إغناطيوس عن التحالف القوي بين الإسلام والمسيحية في سورية وقال:

نحن اليوم نحتفل بهذه البركة، ليس فقط أننا نأكل سوية، بل أن نلتقي سوية. وأنا ممن يعتقدون أنه في تراثنا الروحي أن نقدر لله تعالى خلائقه، ونحن الآن

عندنا خلائق للّه تعالى، أتمنى أن نرى القصد الإلهي من خلقنا جميعاً، ربنا لا يعمل شيئاً عن طريق الصدفة، ربنا دوماً عنده مقاصد، وللّه في خلقه شؤون.

"نفخر جداً أن شخصاً من إنكلترا ورئيس كنيسة كبيرة ومهمة، يرى أننا نحن نجلس سوية، ونرى بعضنا، ونحب بعضنا، نأكل سوية... وإذا كان عند أي إنسان صورة غير هذه الصورة، تكون الصورة التي عنده خاطئة، ونحن نصلحها، وعبّر سماحة المفتي عن فرحه بهذا اللقاء والذي تحت رعاية صاحب الغبطة البطريرك إغناطيوس واصفاً إياه: "حكيم البطاركة في بلاد الشام الذي جمع هذه الباقة من أبناء الوطن ليكونوا نموذجاً فيراه أخوتنا من بريطانيا، وقد جاؤوا ليتعلموا من بلاد الشام كيف تعيش السلام والأمان.

ثم انتقل للحديث عن هذه البلاد: "هذه بلاد باركتها السماء، واختارتها لتستقبل كل رسالاتها، هذه الأرض استقبلت إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليه السلام، نحن نؤمن أن دينهم جميعاً واحد وهو دين إبراهيم، ثم جاء كل واحد منهم بشريعة لتخدم هذا الدين العظيم. فنحن هنا أيها السادة في وطن واحد، ليس فيه أقلية عرقية ولا أقلية دينية، كل إنسان فيها له حق الحياة كأخيه تماماً، أكان سامياً أو آرياً أو حامياً، له ما له وعليه ما عليه، هذا من ناحية العرق الإنساني.

علمنا أساتذتنا وبطاركتنا أن باب السماء لا يبدأ من المسجد والكنيسة، إنما يبدأ من الإنسان، فالإنسان هو المسجد والكنيسة والمعبد الأكبر، لذلك إن لم يكن عندنا أقلية عرقية لا يكون عندنا أقلية دينية، فبما أننا كلنا أبناء الأرض الواحدة، أرواحنا جميعاً من السماء الواحدة والإله الواحد.

صاحب الاحترام زرتنا منذ أكثر من عشر سنوات ورأيت كيف حافظت سوريا على لغة المسيح عليه السلام، وكيف حافظت على إبراهيم وكيف احترمت موسى وكيف عشقت عيسى وكيف بجلت وأعلت مقام محمد، هذه العشر سنين التي غبت فيها عنا، أحكي لك مسيرتنا في العشر سنوات: عشر سنوات ونحن ندفع الظلم عنا باليد، ونزرع باليد الأخرى الحب والسلام، كيف لو تركت اليدان لتزرعا الحب والسلام، لو كنت معنا في العام الماضي ورأيت نصف مليون لبناني، وبيننا رجل أعتبره ابن لبنان في سوريا وابن سوريا في لبنان، الأستاذ نصري الذي

أصر أن يكون الحبل الذي لا ينقطع من الحب بين لبنان وسوريا.

أخيراً ختم رئيس الأساقفة روان، معبراً عن فرحه بهذه الزيارة وقال: "إننا نشعر بأننا بين أخوتنا وفي بيتنا... شكراً لغبطتكم لأنكم أعطيتمونا هذه الفرصة وشكراً لكم جميعاً لأنكم شاركتمونا هذه المائدة. أشكر المتحدثين قبلي الذين تحدثوا بحكمة كبيرة وبطريقة رائعة. وقد ذكرونا بالمعنى الحقيقي للصيام. لقد علمنا الرب أن الصوم الحقيقي يكون عندما تعرفون الحقيقة وتؤمنون بها، وعندما تحبون العدل فإن العدل يوصلكم إلى أن تحبون بعضكم بعضاً."

ولعلّ نبض التعايش الإسلامي المسيحي الذي ألفاه ويليامز في سورية جعله يصدر تصريحه الجديد في بريطانيا ويسعى لتحقيق تعايش سلمي آمن وتفاهم وتلاحم مجتمعي داخل المجتمع البريطاني فيقول: " إنه من أجل الالتحام المجتمعي يتعين منح مسلمي بريطانيا البالغ عددهم 1.7 مليون شخص الفرصة للتعامل مع المسائل المدنية مثل الزواج والطلاق أو القضايا المالية وفق مبادئ الشريعة الإسلامية . وإنه لا يتعين إرغام المسلمين على الاختيار بين الولاء الثقافي أو الولاء للدولة."

وتحمل تصريحات ويليامز الأخيرة معاني باطنية كثيرة يمكن استنباطها:

- ويليامز يعتقد بأن اليهودية والمسيحية الغربية بوضعها الحالية لا تمتلكان قوانين شرعية كافية لتهذيب وضبط المواطن الغربي، ومن هنا دعوته لاستنباط هذه الأحكام من الشرائع الإسلامية.
- يدرك ويليامز بأن الفكر اليهودي الحلولي الغنوصي (وهو مجموعة عقائد حلولية وثنية) قد تغلغل في المسيحية وخرّب معتقداتها وبالتالي فدعوة الإصلاح الفكري والعقيدي عنده لابد لها من العودة إلى الإسلام الذي أدرك ويليامز بأنه وحده مازال ثابتاً محافظاً على صوابيته.
- انتقاد ويليامز لجورج بوش ولمن حوله في إدارته ولسياسته يعني ضمناً بأن ويليامز يدرك خطر الانتماء الصهيوني لجورج بوش، ويذكر بأن القديس بوش يعتنق الصهيونية المسيحية المبنية على أسس أسطورية، والتي تؤلّه إسرائيل الأرض والدولة والقيادة العسكرية.
- اعتراف ويليامز بأهمية الشرائع الإسلامية وبضرورة استثمارها في القوانين الشرعية البريطانية يعني إيمانه بأن الشرائع الإسلامية هي من عند اللّه

وبأنها سامية وعلى قدر من العظمة والإجلال، وذلك يعني أنه مؤمن بأن الإسلام هو من عند الله، أي اعتقاده برسالة محمد أي أن ويليامز يؤمن بالإسلام كله، فيصبح مسلماً غير مصرّح بانتمائه الديني.

- يدرك ويليامز أزمة الغرب المأساوية إذ اكتفى الغرب باستنباط القوانين والأحكام من الأسس الفلسفية والفكرية وأحلّها محلّ القوانين الدينية، ويدرك ويليامز بأن تلك المدارس الفكرية كلها أبعدت الغربي عن الصواب ودمرته واليوم لابد له من الاقتداء بشرائع الإسلام ليحل تلك المشاكل.
- لا شك بأن دعوة ويليامز هذه ستجعله في مقام العظماء والمجددين الذين يرسمون للغرب سبيلاً جديداً يحلّ مشكلاته التي طالت قروناً. ويمكنني أن أشبهه الآن بفولتير.

الضمير الديني

في البيان الصادر عن إدارة الكنيسة الأنكليكانية جاء الرد يقول: "في الواقع إنه يتم الاعتراف ببنود معينة من الشريعة الإسلامية في مجتمعنا وفي قانوننا" إن رئيس الأساقفة كان "يستكشف السبل التي ربما يتم من خلالها التوصل إلى صيغة توفيقية معقولة في اطار الترتيبات الحالية المتعلقة **بالضمير الديني** في المعاملات ". وهذا الضمير الديني لم يعثر ويليامز على مفرداته في المنظومة الفكرية والفلسفية والدينية الغربية فألفاها في الإسلام واضحة نابضة مقنعة وجاهزة للاقتباس وللعمل بها. ويذكر بأن مصطلح الضمير الديني ومرادفاته من مصطلحات الضمير الأخلاقي والقيم الفردية والاجتماعية ظلّت بالنسبة للغرب موضع أخذ ورد وبحث منذ ظهور الفلسفات اليونانية، وأعاد الفلاسفة المحدثون البحث فيها ولم يتوصلوا إلى نتائج مرضية مقنعة للفرد. فقد رأى بعضهم بأنها تنبع من داخل الفرد. ورأى آخرون بأنها قيم اجتماعية تلزم الفرد، ورأى غيرهم بأنها قيم تفرضها الدولة على الفرد. بينما اقترح الفلاسفة المتدينون المسيحيون المتأثرين بالإسلام بأنها تنبع من سلطة عليا هي سلطة الله. وأخيراً فإننا كمسلمين ندرك بأن الضمير الديني يلازمنا جميعاً ويسيّر كافة أعمالنا ويصوّب محاولات انحراف أي مسلم، لأنّ المسلم يعتقد بوجود رقابة إلهية تتابعه باستمرار. وكثيرة هي الآيات القرآنية الكريمة التي تلزمنا بالضمير

والوجدان والأثرة والإيثار. وفي اعتباره بأن " تبني بعض أوجه الشريعة الإسلامية في بريطانيا أمر لا مفرّ منه" يؤكّد الدكتور ويليامز على عبثية محاولة البحث عن حلول لمعضلات الغرب دون إشراك الإسلام وشرائعه بهذا الحل، ويصرّ على أنه اكتشف في الإسلام حلولاً جاهزة سهلة التطبيق ومقبولة للبريطانيين وبالتالي للأوروبيين، إنه باختصار يدعو الغرب كله لاعتناق الإسلام، هذا ما يعلنه ويليامز باختصار، ولذلك فقد قامت الصحف البريطانية بانتقاده بشدة ورسمت إحدى الصحف صورة كاريكاتورية له فنراه وهو يعتلي المنبر ويخطب في مسجد إسلامي.

يتحدث القس اللبناني شفيق أبي زيد عن شخصية روان ويليامز كما يعرفها، ويقول راعي الكنائس اللبنانية في بريطانيا: " ويليامز يحب العرب والمسلمين وله صداقات متينة وحميمة مع شخصيات مسيحية ومسلمة وسياسية عربية. وهو يستمر بالتواصل معهم. ويعتبر ويليامز من مناهضي العلمانية الغربية وصورها البشعة كالمثلية والانحلال الاجتماعي ويسعى لإدخال قوانين الشريعة الإسلامية إلى بريطانيا ولتوظيفها في حلّ مشاكل المجتمعات الغربية."

حكام الغرب أعداء المسيحية

إننا نتفق مع المسيحية العربية عموماً في نقاط تفاهم مشتركة عديدة، وعلى هذا فمن الحكمة أن نتحالف معها بصفتنا مسلمين. وفي هذه السنوات خصوصاً نحن في مواجهة كبيرة وتحد ديني مع المسيحية الصهيونية التي تشتغل ليل نهار بهدف إيقاف موجات الأسلمة في المجتمعات المسيحية كلّها. ونحن في حالة مواجهة مع العقائد الدينية الكثيرة وهي إلحادية وحلولية تنتشر في الغرب. وإن مواجهتنا للمشاريع الاستعمارية الكبيرة يجب أن لا تجعلنا ننغمس في معاداة الغرب كله، بل إن الطرق الواسعة المفتوحة أمامنا والتي لا يستطيع حكّام الغرب إغلاقها دوننا تتمثل في تحالفنا مع أبناء الغرب والتحاور معهم وكسب مواقفهم.

وسيكون ذلك تحويل في معركة مواجهتنا مع الغرب. وستكون مكاسبنا فيها أكبر وأكثر. فإنّ مواقف حكّام الغرب المعادية للمسلمين لا تعبّر مطلقاً عن

الموقف المسيحي الغربي، ولا عن موقف المواطن الغربي الذي هو مسيحي. فالعداء الغربي المعلن والواضح لشعوبنا لا يمكن تصنيفه بصفته مسيحياً وإنما هو نتاج أطماع استعمارية واستبدادية واستعلائية. والغرب معتد واستعماري ليس بسبب كونه مسيحياً، فقد امتدّت أطماع الروم نحو الشرق قبل ظهور الإسلام، وقبل أن يعتنق الروم المسيحية.

المسيحية بمضمونها وبتعاليمها لا تبيح لحكّام الغرب بأن يعادوا المسلمين بل إنها ترفض كافة أعمالهم. ولذلك يتعين علينا كمسلمين أن نحصر ردّنا على تلك الافتراءات العدوانية ضمن نطاق السياسي وبعيداً عن الديني المسيحي. وافتراءات الرسوم الكاريكاتورية الدانماركية لم تصدر عن المسيحية الغربية ولذلك فلا يجوز أن يكون الردّ عليها برسوم تعادي المسيحية.

سياسة حكّام الغرب تعادي المسيحية

الغرب الذي يغزو بلداننا ويهدد بعضها ويتحالف مع الصهيونية ويفرض إيديولوجياتها على بعض العرب والمسلمين لا يمثّل شعوب الدول الغربية. بل إنه يمثّل طبقة الحكّام والسياسيين، وهؤلاء أقلة في بلادهم، ولم يرض عنهم المجتمع العام كله. وهم حكّام مستبدون اغتصبوا السلطة بواسطة اللعبة الديمقراطية، ولم يكترثوا بآراء شعوبهم.

ولعلّ اتفاقهم مع إسرائيل على مشاريع معادية للمسلمين يجعلهم عصابة صهيونية عالمية تمارس العدائية على المسلمين وعلى شعوب الغرب أنفسهم. فعندما زار جورج بوش دول أمريكا الجنوبية قابلته الشعوب بالرفض والاستنكار والطرد. وفي بلدانهم يواجه حكّام الغرب المعتدين على بلداننا استنكاراً شديداً. وتسير المظاهرات هناك في كل مناسبة ترفض سياساتهم وأعمالهم الإجرامية والاستبدادية. ففي المجتمع الغربي اليوم رفض متزايد لسياسة الحكام، وهذا ما نلاحظه أيضاً في طبقات سياسية ضعيفة ضغطت على توني بلير وعلى جورج بوش وعلى غيرهم في إيطاليا وإسبانيا وهولندا وأستراليا. ففي بولندا أظهر استطلاع آراء

كانون أول 2007 بأن نسبة 80 ٪ من البولنديين يؤيدون انسحاب القوات البولندية من العراق. وهذه نسبة كبيرة للغاية تعادي مواقف الحكومة البولندية. وتشير بوضوح إلى أن الحكومات الغربية لا تعبّر مطلقاً عن مواقف وآراء شعوبها. بل إن نظام الحكم الغربي استبدادياً حقيقياً، وينتج عن مؤامرات انتخابية محكمة الدقة والتلاعب ويذهب ضحيتها شعوب الغرب قبل غيرهم.

وهذا ما يعلل إعراض المواطن الغربي عموماً عن التحدث بالسياسة والتثقف بها واكتفائه بالأخبار الفنية والرياضية والحوادث الاجتماعية، لأنه سئم من لعبة السياسة واقتنع بأنها مؤامرة أكبر منه بكثير.

ثورة جديدة في الغرب

هذه الثورة القادمة ستحول الصراع إلى مشروع للتخلص من حكام الغرب وأحزابه المتطرفة. ويأخذ هذا الصراع شكلاً جديداً. فقد أصبح صراع بين السلطة الغربية الحاكمة وشعوبها مسلمين وغير مسلمين. إذ تقوم السلطة في الغرب بمنع تحرر مواطنها من قيودها، وبمنع دخول فكر جديد إلى ذهنه. وبمنعه من إجراء محاكمة عقلية للقضية الفكرية بمجملها، أي أن السلطة الحاكمة تريد إخضاع وخنوع مواطنها لكلّ ماتمليه هي عليه من إرادة. ولعلّ أهم ما تريد إبقائه في مواطنيها هو المسيحية التي تمّ تفريغها بالكامل من كافة المعاني الدينية. والمسيحية الأخرى التي تم تحميلها عقائد يهودية صهيونية. فأصبحت هذه مسيحية خرافية وأسطورية. بل وتسمى بالمسيحية الصهيونية.

وفي هذه المرّة اكتشف المواطن الأوروبي أسرار وأخطار لعبة التضليل التي تمارس عليه. فقد رأينا مظاهرات الاحتجاج في أوروبا وأمريكا ترفض خضوع الحكّام للسياسة الصهيونية. وتطالب بوقف أعمال العداء ضد العراق وأفغانستان. وترفض مرات عديدة جرائم الصهاينة التي تمارس ضد العرب والمسلمين في المنطقة.

فالصراع في الغرب انما هو في حقيقته صراع حكّام الغرب مع شعوبهم، وفي خضمّ هذا الصراع لم يكن أمام الغربي إلاّ منفذ واحد للنور الساطع والنور المنقذ الذي يمكنه التعلّق به ويأتي هذا النور من الإسلام نفسه. فشعوب العالم الإسلامي تطلق

باستمرار نداء الحرية من الهيمنة الغربية، وهذا النداء التحرري هو نفسه نداء الأوروبي للتحرر من الحاكم المتسلط عليه. وبينما يقوم الأوروبي بالتعرّف على مشكلة الشعوب الإسلامية مع حكام الغرب فإنه يكتشف حقيقة عنصرية السلطة الحاكمة في الغرب. ويتعرف على عقيدة المسلمين وعلى تاريخهم الطويل في التسامح مع الآخر وفي احتواء الآخر وجعله من ضمن الكيان الإسلامي. وهذا التعرف على الإسلام هو الذي يجعل أبناء الغرب يتعاطفون مع المسلمين ويتمنّعون عن إبادتهم في أي يوم من الأيام، بل ويجعلهم مندفعين ليدخلون في دين الإسلام أفواجاً.

إن الصراع الذي يجعله حكّام الغرب صراعاً إسلامياً مسيحياً إنما هو في حقيقته خشية حكّام الغرب من تنوير شعوبهم بهدي الإسلام.أي أنه صراع حكّام الغرب مع شعوبهم.

ولن يتوقف هذا الصراع كما يشتهي حكام الغرب، بل إنه اليوم في مرحلة المخاض التي تسبق الثورة. وفي هذه المرحلة تتشكل عناصر وإيديولوجيات هذه الثورة. وتعتبر تصريحات القس روان ويليامز واحدة من هذه العناصر الجديدة والشديدة الأهمية.

فهو يرفض التشريعات والقوانين الغربية القائمة ويرفض النمط الديني السائد في الغرب ويطالب بإقحام القوانين الشرعية الإسلامية في بريطانيا، ومن المؤكد بأن الغرب قد سئم الفراغ التشريعي والفراغ الفكري والخدعة الاستعمارية واللعبة السياسية القائمة على أسس صهيونية. كما سئم من تبعية الغرب برمته للصهيونية واليهودية العالمية، وكل ذلك ينذر بثورة قريبة ضد الحكام المستبدين في الغرب.

obeikandl.com